فنّ الزحف

دليل موجَّه ليستخدمه رجال البلاط

طرائف فلسفية

البارون هنري تيرى دي هولباخ

ترجمة: د. بلقاسم گريسعان



Essai sur l'art de ramper, à l'usage des courtisans

فنّ الزحف
دليل موجَّه ليستخدمه رجال البلاط

طرائف فلسفية
مستخرَجة من مخطوطات الراحل:
البارون هنري تيري دي هولباخ

ترجمة:
د. بلقاسم گريسعان

الطبعة الأولى: 2026

تصميم الغلاف: إلهام ذبيحي

للنشر والتوزيع /العراق - بغداد
بغداد: 009647811898461
Email: Abkallu91@gmail.com

Essai sur l’art de ramper, à l’usage des courtisans

فنّ الزحف
دليل موجَّه ليستخدمه رجال البلاط

طرائف فلسفية

مستخرَجة من مخطوطات الراحل:
البارون هنري تيري دي هولباخ

ترجمة:
د. بلقاسم كَريسعان

أبكالو 2026

هذا الكتاب يكشف بلغة فلسفية ساخرة آليات التملّق والخضوع في البلاطات الملكية، رابطًا بينها وبين فساد الدين والسياسة.

المحتوى

المقدمة

المقدمة

في سنة 1813 خرج إلى النور كتيّب صغير الحجم عظيم الدلالة عنوانه "*مقال في فنّ الزحف، لاستخدام رجال البلاط*" (*Essai sur l'art de ramper, à l'usage des courtisans*)، من تأليف البارون بول هنري دي هولباخ (1723 – 1789)، أحد أجرأ عقول التنوير الفرنسي وأكثرهم ماديةً وجذرية. نُشر العمل بعد وفاته بثلاثة عقود ضمن المجلّد الخامس من سلسلة «المراسلات الأدبية والفلسفية والنقدية الموجَّهة إلى أحد أمراء ألمانيا» التي حرّرها فريدريك ميلكيور غريم وديدرو. وكان غريم قد أخفى بين أوراقه هذه «الطرَف الفلسفية» التي دوّنها هولباخ بشيء من التحفّظ، إذ كان يدرك أن سخريةً كهذه لن تُقرأ إلا بوصفها تجديفًا سياسيًا.

هذا الكتيّب، الذي لا يتجاوز صفحات قليلة، يُعدّ تحفة من تحف الفكر الساخر في أوروبا القرن الثامن عشر، لكن قيمته الفلسفية تفوق قيمته الأدبية. إنه ليس نصًا عن اللياقة في البلاط ولا كُتيبًا للمجاملة، بل تشريحًا دقيقًا لآلية العبودية الطوعية التي يتقنها الإنسان حين يفقد كرامته ويُقنع نفسه أن الانحناء نوع من الحكمة. في صفحات هولباخ

تُستبدل المفردات السياسية بمفردات أخلاقية، فيغدو الطغيان سلوكًا يوميًا يتسرّب إلى اللغة والمجاملة والنظام الاجتماعي.

لقد كان هولباخ فيلسوف الطبيعة والمادة، يؤمن أن القانون الأخلاقي ينبع من العقل الطبيعي لا من الإلهام اللاهوتي. وفي هذا العمل يتجلّى الوجه الآخر من ماديته الفكرية: إدراكه أن الإنسان يستطيع أن يخضع حتى دون سوط، وأن السلطة تُحافظ على نفسها بالكلمة كما تحافظ بالسيف. إنه يرى أن الزحف فنٌّ يتعلّمه الناس كما يتعلمون الخطابة أو الموسيقى، وأنّ المجتمع المتحضّر ليس إلا مدرسةً كبيرة في إتقان الخضوع.

في هذا السياق يتحوّل النص إلى مرآة داكنة لروح العصر الفرنسي قبيل الثورة: عصرٍ تتعايش فيه الأنوار مع الاستبداد، والعقل مع الخوف، والكلمة الحرّة مع اللسان المنحني. إنّ هولباخ، بذكاء الفيلسوف وحدة الساخر، يضع أصابعه على جوهر المشكلة الإنسانية التي لم يُفلح في حلّها أحد من قبله ولا بعده: كيف يتحوّل العقل الذي خُلِق للحرية إلى أداةٍ لتبرير العبودية؟

فيكتب هولباخ نصّه بلغةٍ تجمع بين سخرية المسرح ودقّة التحليل الفلسفي، فهو في الظاهر يقدّم "دليلًا عمليًا" لرجال البلاط حول فنّ الزحف، لكنّ القارئ المتأمل يدرك منذ الجملة الأولى أن الكاتب لا يعلّمهم كيف يزحفون، بل يفضحهم وهم يزحفون. يستخدم

صيغة الوصف والتعليم الماكر كي يقلبها إلى هجاء خفيّ، ويحوّل الخطاب الوعظي إلى مرآة ساخرة يرى فيها القارئ انحطاطه الأخلاقي. هذه المفارقة بين الظاهر والباطن هي ما يمنح النص مكانته الفريدة بين نصوص التنوير: فهو يجمع بين فلسفة الأخلاق وبلاغة السخرية.

كان البلاط الفرنسي في النصف الثاني من القرن الثامن عشر مسرحًا للتملّق المتقن، حيث تحوّلت اللياقة الاجتماعية إلى علمٍ له قواعد، وصار النجاح في القصر لا يُقاس بالذكاء أو الشجاعة، بل بمهارة الانحناء. في هذا الجوّ الفاسد كتب هولباخ نصّه، وهو الذي عاش في باريس حياة النبلاء، وجلس في مجالسهم، لكنه رأى في سلوكهم صورةً للانحطاط الأخلاقي الذي يُخفي وراءه رعبًا من فقدان الامتياز.

لقد عرف هولباخ أن النفاق في جوهره ليس كذبًا، بل خوفًا متجذرًا من فقدان السلطة أو القبول الاجتماعي. ومن هنا جاءت نبرة النص مزدوجة: فهو يُضحك القارئ ويؤلمه في آنٍ واحد، إذ يعرّي الكائن البشري حين يفضّل الأمان على الكرامة.

في هذا "الفنّ" الذي يسخر منه الكاتب، لا يتعلّم الإنسان كيف يعيش بين الأقوياء فحسب، بل كيف يُقنع نفسه أن انحناءه واجب أخلاقي وفضيلة. وهنا تتجلى عبقرية هولباخ في كشف آلية التبرير: فحين يُجرَّد الإنسان من حريته، يبدأ بتزيين عبوديته بشعاراتٍ أخلاقية؛ فيسمي الجبن حكمة، ويسمي الصمت احترامًا، ويسمي الخضوع أدبًا.

هذا الانقلاب القيمي، الذي يحوّل الضعف إلى فضيلة، هو محور الكتيّب بأكمله. فالزحف عنده ليس حركة جسد، بل حالة وعيٍ منكسرة تتعلّم التبرير قبل الاعتراض. هكذا تتكشّف الصورة الرمزية للنص: وهنا يجد القارئ بأن البلاط ليس قصر الملك فحسب، بل نموذجٌ مصغّر للمجتمع كلّه، حيث تُدار العلاقات بين الخوف والمصلحة. ولذلك يمكن القول إن "فنّ الزحف" هو دراسة مبكرة في الأخلاق السياسية، يفضح كيف يولد الاستبداد من داخل النفوس قبل أن يتجسّد في العروش.

إنَّ ما يجعل هذا الكتيّب استثنائيًا ليس سخريته فحسب، بل عمقه الفلسفي في تشخيص المرض الإنساني الذي يجعل البشر يكرهون العبودية في العلن ويستمرئونها في الخفاء. لقد أدرك هولباخ أن الطغاة لا يصنعون الطغيان وحدهم، بل يحتاجون دائمًا إلى ضحايا متواطئين، إلى أولئك الذين يتقنون فنَّ الزحف باسم العقل والحكمة. وهكذا يتحول "فن الزحف" إلى صورةٍ رمزيةٍ للإنسان المقهور الذي تخلّى عن وعيه النقدي، وراح يزيّن أغلاله بمفردات الفضيلة واللياقة. فيكتب هولباخ كما لو كان يشرح آليةً فيزيائية: إذا وُجد الخوف، نشأ النفاق، وإذا تكرّر النفاق، مات الضمير، وإذا مات الضمير، لم تعد الحرية ممكنة. هذا هو تسلسل العبودية في نظره، وهو تسلسل يبدأ من داخل الإنسان وليس من النظام السياسي فحسب.

إنه يرى أن السلطة لا تحتاج إلى السلاح ما دامت تملك القلوب. فالإنسان الذي تعلّم الانحناء لن يرفع رأسه حتى إن سقط الحاكم، لأن الخضوع صار طبعًا لا موقفًا. هذه النظرة المادية للسلوك الأخلاقي هي امتدادٌ لمنهجه في كتابه الأشهر *"نظام الطبيعة"*، حيث اعتبر أن جميع الظواهر ـ حتى الأخلاقية منها ـ تخضع لقوانين العلّة والمعلول. فالإنسان يزحف لأنه وجد في الزحف منفعة، ولأن المجتمع يُكافئه على الخضوع أكثر مما يُكافئه على الجرأة. ومن هنا تنشأ ما يسميه "العبودية الطبيعية"، أي تلك التي تنبع من التكرار والعادة حتى تصبح سلوكًا آليًا.

وفي هذا السياق، يبدو "فن الزحف" وكأنه تأمل في علم النفس الاجتماعي قبل ظهوره. فهولباخ يصف المجتمع باعتباره مسرحًا كبيرًا للأقنعة، يُجبر فيه كل فرد على أداء دوره حفاظًا على بقائه. لا أحد يقول الحقيقة، لأن الحقيقة في مجتمع البلاط تُعدُّ نوعًا من الوقاحة. وهكذا يتجلّى البعد الأنطولوجي للنص: الإنسان في البلاط ليس كائنًا حرًّا، بل جزء من منظومة رمزية تتغذى على الخوف والرغبة في القبول. إنه لا يهاجم شخص الملك، بل يهاجم نظام الطاعة ذاته، ذاك النظام الذي يُحوِّل الإنسان من فاعلٍ إلى تابعٍ، ومن مفكّرٍ إلى مقلّدٍ، ومن صاحب موقفٍ إلى أداةٍ للتزيين.

وهنا يلتقي فكر هولباخ بما سيقوله لاحقًا لابويسي ونيتشه وفوكو: أنَّ العبودية لا تُفرض، بل تُمارَس طوعًا حين يغيب الوعي ويُستبدل التفكير بالتأقلم.

حين نقرأ «مقال في فن الزحف» اليوم، بعد مرور قرنين على كتابته، نشعر أننا لا نقرأ نصًا فرنسيًا من القرن الثامن عشر، بل مرآة معاصرة تعكس حال الإنسان في كل مجتمعٍ تغلب فيه الطاعة على الكرامة. فهولباخ، من حيث لم يدرِ، كتب نصًا عابرًا للثقافات، لأنّه لم يوجّه نقده إلى ملكٍ أو نظامٍ بعينه، بل إلى البنية النفسية والاجتماعية التي تصنع التسلّط وتعيد إنتاجه في كل عصر. إنّ الزحف في نظره ليس مجرّد فعلٍ جسديٍّ منحنٍ أمام السلطة، بل هو بنية وعيٍ مشوَّه تجعل الإنسان يقدّس القوة وينسى ذاته. ومن هنا يمكن القول إنّ هذا النصّ هو بيان مبكّر في نقد الخضوع الإنساني قبل أن يولد علم الاجتماع السياسي بقرنٍ كامل.

وفي المجتمعات التي تتوارث الخوف، يصبح فنّ الزحف مهارةً اجتماعية. يُدرَّس في التربية، ويُمارَس في العمل، ويُشرَّع باسم الدين والأدب والتقاليد. ومن ثمّ، فإنّ رسالة هولباخ تتجاوز قصر فرساي لتصل إلى كل بيتٍ ومؤسسةٍ ومنبرٍ يُرَبّى فيه الإنسان على الانصياع لا على النقد. وهنا تبرز راهنية الكتيّب بالنسبة إلى القارئ العربي: فهو يفضح الآليات التي تجعل الخضوع فضيلةً، والجرأة رذيلةً، والصمت حكمةً، والمجاملة سياسة. فهذه المنظومة التي وصفها هولباخ لا تزال قائمة بأسماء مختلفة؛ فكلّ سلطةٍ تبحث عمّن يزحف نحوها، وكلّ مجتمعٍ يمدح المتواضع حتى ينسى أن التواضع إذا جاوز الحدّ يصبح مستهجنا.

إنّ أعظم ما في هذا النص أنّه يُعلّمنا الشجاعة بطريقةٍ معكوسة: ليس بالتحريض على الثورة، بل بإجبارنا على مواجهة ذلّنا اليومي. فالفيلسوف لا يقول للقارئ "انهض"، بل يضع أمامه مرآةً تجعله يكره مشهد انحنائه. ولهذا فإنّ «فن الزحف» ليس كُتيّب سخريةٍ فحسب، بل درس في الوعي الإنساني، يذكّرنا بأن الحرية لا تبدأ بالشعارات، بل بالاعتراف بالعبودية المتغلغلة فينا.

لقد كتب هولباخ نصّه بنبرةٍ ساخرةٍ رشيقةٍ، لكنّ خلف تلك السخرية تختبئ مأساة الفكر التنويري نفسه: أنّ الإنسان حين يتحرّر من الإله، يخلق آلهةً جديدةً في السياسة والمجتمع والمال. ولذلك يبقى هذا الكتيّب صالحًا لكلّ زمن، لأنه يذكّرنا بأن أول خطوة نحو الكرامة هي أن نكفّ عن الزحف، وأن نجرؤ على الوقوف، لمواجهة أنفسنا.

فنّ الزحف

دليل موجَّه ليستخدمه رجال البلاط

طرائف فلسفية

البارون هنري تيري دي هولباخ

فنّ الزحف
دليل موجَّه ليستخدمه رجال البلاط[1]

طرائف فلسفية
البارون هنري تيري دي هولباخ

إنّ رجل البلاط هو بلا منازع، أغرب نتاج أبدعه الجنس البشري. إنّه حيوان برمائي يجمع في ذاته، في كثير من الأحيان، شتّى ضروب التناقض. وقد شبّهه فيلسوف دنماركي بذلك التمثال المؤلَّف من مواد متباينة، الذي رآه نبوخذنصر ذات يوم في حلمه. فيقول: "رأس رجل البلاط من زجاج، وشَعره من ذهب، ويداه من قطران راتنجي، وجسده من الجبس، وقلبه نصفه من حديد ونصفه من طين، وقدماه من قشّ، ودمه مركّب من ماء وزئبق".

---

(1) 1813نُشر كُتيّبه "مقال في فنّ الزحف، لاستخدام رجال البلاط *Essai sur l'art de ramper, à l'usage des courtisans*)" بعد وفاته، في المجلد الخامس من سلسلة "المراسلات الأدبية والفلسفية والنقدية الموجَّهة إلى أحد أمراء ألمانيا "التي حرّرها فريدريك ميلكيور غريم وديدرو، والذي كان قد أخفى بين أوراقه هذه "الطُرَف الفلسفية" لهولباخ.

ولا بدّ من الإقرار بأنّ مثل هذا الحيوان العجيب يصعب تعريفه؛ فهو بعيد كلّ البعد عن أن يكون مفهوماً لدى الآخرين، بل إنّه بالكاد يفهم نفسه. ومع ذلك، يبدو جائزا أن يُصنَّف إجمالا في زمرة الكائنات الإنسانية، مع الأخذ بعين الاعتبار واقع اختلاف أنّ الناس العاديين لا يملكون سوى شخصية واحدة، في حين أنّ رجل البلاط يبدو وكأنّه يمتلك شخصيات متعددة. فهو تارةً متعجرف insolente وتارةً وضيع ذليل، وقد يُظهر أبشع صور البخل والجشع الذي لا يشبع، كما قد يتجلّى بأقصى درجات السخاء؛ وقد يكون جريئا جسورا كما قد يرتكس الى أحطّ أشكال الجبن، مغرورا متعجرفا أو متّزنا محسوب الخطى. وباختصار: إنّه بروتيوس Proteo متحوّل، أو يانوس Giano ذو الوجهين، بل لعلّه أقرب إلى إله هنديّ مُصوَّر بسبعة وجوه مختلفة.

ومهما يكن من أمر، فإنّ الدول تبدو وكأنّها خُلقت خصيصا لمثل هذه الحيوانات النادرة؛ إذ إنّ العناية الإلهية قد خصّصت لهم أدقّ المتع، والملك... إنّ الملك نفسَه ليس سوى وكيل أعمالهم؛ فإذا أدّى واجبه اقتصر على تلبية احتياجاتهم، ومجاراة نزواتهم، وهو فخور غاية الفخر بأن يعمل في خدمة رجال لا غنى للدولة عنهم. فإذا جَبا الملكُ الضرائب، وأعلن السلم أو الحرب، وأعمل ذهنه في آلاف الحيل البارعة لإرهاق الشعب وتكديس الضرائب عليه، فإنّما يفعل ذلك كلّه من أجل أولئك الأفراد وحدهم. وفي مقابل هذه العناية، يكافئ رجال البلاط

مليكهم باللين والتزلّف، والمواظبة، والتملّق، والجبن؛ ولعلّ أعظم موهبة يحتاجها المرء في البلاط هي معرفة كيف يبادل هذه البضائع لقاء حظوةٍ أو عطف.

أمّا الفلاسفة، الذين هم في الغالب سيّئو المزاج، فإنّهم يعدّون مهنة رجل البلاط مهنةً وضيعة، خسيسة، لا تقلّ دناءة عن مهنة السامّ بالسموم. والشعوب الجاحدة لا تدرك قيمة الواجبات العظمى التي ينهض بها هؤلاء الرجال الأسخياء، الذين يضحّون بالراحة لكي يحافظ الملك على مزاجه رائقًا، ويفنون حياتهم في خدمة capricci نزواته وأهوائه)، ويقدّمون قربانًا في سبيله: الشرف، والأمانة، والكرامة، والحياء، بل حتى تأنيب الضمير؛ وكيف لا يُدرك هؤلاء الأغبياء ثمنَ مثل هذه التضحيات الجسيمة؟ ألا يفكّرون بالثمن الذي يجب دفعه ليكون المرء رجل بلاط صالحًا؟ فمهما بلغت قوة النفس التي يتحلّى بها الإنسان، ومهما كانت الضمائر قد تسلّحت بعادة احتقار الفضيلة ووطء الأمانة بالأقدام، فإنّ قهرَ صوت العقل الصارخ في القلب يبقى أمرًا شاقًا على الناس العاديين. وحده رجل البلاط قادر على إخماد تلك الصرخة المزعجة، ووحده يملك تلك الجرأة النبيلة.

وعند النظر إلى الأمر من هذه الزاوية، يتّضح أنّ فنّ التملق هو بلا شكّ أصعب الفنون ممارسةً، وأنّ هذه الصناعة الرفيعة ربما تكون أعظم انتصار أحرزته الروح الإنسانية. لقد أودعت الطبيعة في قلب الإنسان

حبًّا للنفس، وكبرياء، واعتدادًا بالنفس، وهي ميول من أشدّ ما يكون صعوبةً في قهرها. فالروح تتمرّد على كلّ ما يرمي إلى إذلالها، وتثور بقوّة كلّما جُرحت في موطن ضعفها. وإن لم يعتد المرء منذ البداية على محاربة هذا الدافع الجامح وكبحه وقمعه، فسيكون من المستحيل السيطرة عليه لاحقًا. أمّا رجل البلاط فقد كرّس نفسه منذ الطفولة لمثل هذا التدريب: تدريب لا يقلّ نفعًا عن دروس أخرى طالما جرى تمجيدها، وهو يكشف في مَن اكتسب ملكة إخضاع الطبيعة عن قوّة لا يملكها سوى قلّة قليلة. وبهذه الجهود البطولية، وبمثل هذه الصراعات والانتصارات، يتميّز رجل البلاط المتمرّس، فيصبح موضع حسد أقرانه وإعجاب الجمهور.

فبأيّ جرأة يتباهى المتديّنون بتضحيات يفرضها الدين على من يطمحون إلى نيل السماء! وكيف ما زالوا يحدّثوننا عن قوّة النفس عند أولئك الفلاسفة المتعجرفين الذين يريدون الحطّ من شأن كلّ ما يعظّمه البشر! لقد عجز الحكماء والمتعبّدون عن قهر حبّ الذات؛ وبدا أن الكبرياء لا يتنافى مع الورع ولا مع الفلسفة. وحده رجل البلاط هو الذي أُوتي القدرة على الانتصار على نفسه وتحقيق النصر التام على نزوات قلبه. إنّ رجل البلاط الكامل هو بلا ريب أعجب البشر على الإطلاق. دعونا نكفّ عن الكلام على تفاني المتديّنين نحو الإله... فالتفاني الحقيقي هو تفاني رجل البلاط نحو سيّده؛ انظروا كيف يُذلّ نفسه أمامه! كيف يتحوّل إلى آلة صِرفة، بل إلى لا شيء، منتظرًا أن يستمدّ

وجوده من سيّده، ساعيًا إلى تقليد ملامحه، كالشمع الطيّع القابل لأن يُطبع فيه أيّ شكل يُراد.

بعض الناس قد ابتُلوا بصلابة في الروح، وبقصور في مرونة الظهر، وبنقص في ليونة العنق؛ وهذا الخلل البائس يمنعهم من التدرّب على فنّ الزحف ويجعلهم عاجزين عن الترقي في مراتب البلاط. فالحيّات والزواحف تصعد إلى القمم والصخور التي يعجز عن بلوغها أشدّ الخيول بأسًا. وهكذا فإن البلاط لا يصلح أبدًا لأولئك المتعجرفين الاشداء، الذين لا يعرفون الانحناء أمام النزوات، ولا مسايرة الأوهام، ولا ـ عند الحاجة ـ الموافقة على الجرائم التي يعدّها الحكم ضرورية لخير الدولة.

إنّ رجل البلاط الصالح لا ينبغي أن تكون له قطّ آراء شخصية، بل فقط آراء سيّده أو وزيره، وعليه أن يكون قادرًا على توقّعها بدهاء. وذلك يفترض خبرة راسخة ومعرفة عميقة بقلوب البشر. ورجل البلاط الجيّد لا ينبغي له أبدًا أن يكون على حقّ؛ بل ليس له في أيّ حال أن يتفوّق بذكائه أو بريقه على سيّده أو على من يغدق عليه العطف. عليه أن يتذكّر دائمًا أنّ الملك، بل عمومًا كلّ صاحب سلطان، لا يخطئ أبدًا.

وعليه أيضًا أن يكون ذا معدة قويّة تهضم كلّ الإهانات التي يشاء سيده إنزالها به. منذ نعومة أظفاره يجب أن يتعلّم السيطرة على ملامحه، لئلا تفضح أسرار قلبه أو تكشف عن امتعاضٍ لا إرادي تثيره إساءة قد لحقت به. فمن أجل العيش في البلاط لا بدّ من ضبط كامل لعضلات

الوجه، كي يتلقّى أقسى الإهانات دون أن يطرف له جفن. فالشخص الحقود، سيّئ المزاج أو الحسّاس المرهف، لن يتمكّن أبدًا من أن يشقّ طريقه في البلاط. والحقيقة أنّ أصحاب السلطة لا يحبّون أن يشعر أحد بلدغاتهم السخيّة، ولا أن يجرؤ على الشكوى منها. ورجل البلاط أمام سيّده يجب أن يحاكي ذاك الفتى الإسبرطي الذي جُلد عقوبةً على سرقة ثعلب، فيما كان الحيوان المختبئ تحت رداءه ينهش أحشاءه، دون أن يطلق صرخة ألم واحدة. فأيّ فنّ وأيّ سيطرة على النفس يتطلّبان مثل هذه القدرة على التستّر، وهي السمة الأساسيّة لرجل البلاط الحق!

ويجب عليه أن يكون قادرًا دومًا على إبطال مفعول خصومه بإظهار الودّ، وأن يُبدي وجهًا باسمًا حنونًا لأولئك الذين يمقتهم، وأن يعانق بحرارة العدوّ الذي يودّ خنقه؛ وأخيرًا، أن تُخفى على محيّاه حتى أكذب الأكاذيب وأكثرها فجورًا. إنّ الفنّ النبيل لرجل البلاط، والذي يشكّل عمدة شغله، هو أن يظلّ على اطّلاع دائم على شهوات سيّده ورذائله، ليتمكّن من استغلال موطن ضعفه؛ وهنالك يكون قد أمسك بالمفتاح إلى قلبه. فإن كان ميّالًا إلى النساء وجب تدبيرهنّ له، وإن كان تقيًّا وجب التظاهر بالتقوى أو النفاق، وإن كان سوداويّ المزاج وجب زرع الشكوك في نفسه تجاه كلّ من يحيطون به، وإن كان كسولًا وجب ألّا يُحدّثه أحد عن العمل. وبكلمة موجزة: يجب أن يُخدَم وفق رغباته، وأن يُمدَح على الدوام. فإذا كان غبيًّا فالإطراء المفرط لا يضرّ، بل لعلّه أنفع.

أمّا إذا كان ذكيًّا رشيدًا ـ وهذا احتمال نادر جدًا ـ فعندها يجب التحلّي بشيء من الحذر. وينبغي لرجل البلاط أن يجتهد ليكون لطيفًا، ودودًا، ومهذّبًا مع كلّ من قد ينفعه أو يضرّه، وأن يُظهر الغلظة والتكبّر فقط مع من لا حاجة له بهم. كما يجب أن يعرف عن ظهر قلب ثمن كلّ من يلقاه، وأن ينحني احترامًا أمام خادمة سيّدة نافذة... ينبغي على رجل البلاط أن يتودّد، بلا كلل، إلى البوّاب أو خادم الوزير، وأن يلاطف كلب الموظّف الكبير، وليس له أن يغفل لحظة واحدة، فحياة رجل البلاط انشغال دائم لا ينقطع. والرجل الحقّ في البلاط مطالب، كأرليكينو، أن يكون صديقًا للجميع، ولكن دون أن يقع في ضعف التعلّق بأيّ أحد؛ إذ هو مضطرّ إلى إخضاع حتى الصداقة والإخلاص، وتخصيص ولائه المطلق للرجل صاحب السلطان، إلى أن يفقد هذا سلطته. وعليه أن يكره، بلا إبطاء، كلّ من يعادي السيّد أو المقرّب لديه.

فهل يمكن للدول أن تدفع أكثر مما ينبغي لقاء جماعة من الرجال بلغوا هذا القدر من التفاني في خدمة الأمير؟ إنّ كنوز الشعب بأسرها تكاد لا تكفي لمكافأة هؤلاء الأبطال، أولئك الشهداء الذين نذروا أنفسهم للمصلحة العامّة؛ أفلا يكون من العدل أن يُجزَوا في هذه الحياة على الأقل جزاءً وافيًا؟ وأيّ احترام، وأيّ تبجيل يجب أن نُظهره نحو هذه الكائنات المميّزة، التي وهبها مقامها وطباعها مناعة واعتدادًا، فنراها تجود، بسخاء لا ينقطع، بكرامتها ونبلها واعتدادها بذاتها!

ألا يدفعون، كلّ يوم، هذا الفناء المتعالي للذات إلى حدّ أن ينهضوا لدى الأمير بالوظائف التي يقوم بها أدنى الخدم نحو سيّدهم؟ وهم لا يرون في ذلك شيئًا دنيئًا؛ بل، على العكس، يفاخرون بأداء أحقر المهامّ في حضرة المعبود الموقَّر، ليلًا ونهارًا يتشوّقون إلى نعمة أن يكونوا نافعين له، يرافقونه، ويتظاهرون بأنّهم وسطاء متلذّذون بكلّ ملذّاته، وينسبون إليه سخافاتهم أو يسارعون إلى تزكيتها. وبكلمة واحدة: إنّ رجل البلاط الصالح غارق تمامًا في فكرة الواجب، حتى ليشعر بالفخر وهو يقوم بأفعال يستنكف عنها حتى أكثر الخدم إخلاصًا. وروح الإنجيل هي التواضع؛ وابن الإنسان قال: "من يرفع نفسه يُذلّ"، وصحيح أيضًا أنّ العكس قائم، فبلاط الملوك يتّبع هذا المبدأ حرفًا بحرف. فلنكفّ إذن عن الاستغراب من أنّ العناية الإلهية تجزيهم بسخاء على مرونتهم، وأنّ من إذلالهم لأنفسهم تنبثق الأوسمة والثروات واعتبار الدول الرشيدة.

ملاحظة بيوغرافية

إعداد: فرانشيسكو كيوسّونه

ملاحظة بيوغرافية

إعداد: فرانشيسكو كيوسّونه

– 1723وُلد بول هاينريخ ديتريش هولباخ) الذي حُوّل اسمه إلى الفرنسية :بول هنري تيري دُلباخ(في إدِسهايم بولاية البالاتينات الألمانية، في عائلة من صغار البرجوازية المحلية. لا يُعرف شيء تقريبًا عن والديه، لكن الذي تكفّل بتعليمه وضمان ثروة مستقبلية له كان خاله من جهة الأم فرانتس آدم هولباخ، الذي كوّن ثروة في فرنسا وحصل كذلك على لقب نبيل. ولأنّه لم يُخلّف أبناء، فقد أورث بعد موته معظم ثروته الكبيرة ولقب البارون لابن أخته، الذي استطاع بذلك أن ينتقل إلى هولندا ليدرس الحقوق في جامعة لايدن .وهناك تعلّم الفرنسية التي أصبحت لاحقًا لغته المعتمدة، والإنجليزية التي مكّنته من قراءة فلاسفة التجريبية في التقليد الأنجلوسكسوني الكبير، وعلى رأسهم توماس هوبز.

– 1749بعد سنواته الجامعية في لايدن، انتقل إلى باريس حيث حصل على الجنسية الفرنسية، وهناك سيقضي بقية حياته.

صار صديقًا لـ ديدرو، الذي أشركه في المغامرة المبهرة لمشروع الموسوعة (*L'Encyclopédie*)، والذي قدّم فيه البارون

إسهامات مهمة بفضل خبراته في الجيولوجياوعلم المعادن، إلى جانب كتابته (مجهولًا) العديد من المواد المتعلقة بالسياسة والدين.

– 1750تزوّج باسيل-جنيفياف دين، ابنة إحدى قريباته، المنحدرة من عائلة من البرجوازية الفرنسية الغنية. وخلافًا لعادات ذلك الزمن، لم يكن الزواج مصلحيًا، بل يبدو أنّ دُلباخ أحبّ زوجته الشابة حقًا. لكنّها توفيت عن خمسٍ وعشرين سنة بعد مرض طويل أليم. وبحسب شهادة صديقه أليساندرو فيرّي، فإنّ أصل إلحاده الجذري يعود إلى هذه الفاجعة" :*قيل لي إنّ أساس النظام الفلسفي للبارون، وحماسته في الدفاع عنه، يرجعان بالأساس إلى رؤيته موت زوجته الأولى [...] وسط أهوال عقيدة العذاب الأبدي... ومنذ ذلك الحين صار ملحدًا متطرّفًا*".

كانت الاستقبالات التي أقامها في منزله الباريسي يومَي الخميس والأحد في وقت الغداء، قد تحوّلت سريعًا إلى ملتقى أساسي لـ الفلاسفة الموسوعيين ولألمع المفكرين الأوروبيين (من بينهم هيوم، آدم سميث، وبكّاريا).

– 1759بعد نشر كتاب في الروح (*De l'esprit*) للفيلسوف المادي هلفيسيوس، اندلعت في فرنسا جدالات عنيفة ضد الدين. وقد ردّت السلطة السياسية، بتحريض من الإكليروس، بمنع طباعة الموسوعة . لكن دُلباخ ظلّ إلى جانب صديقه ديدرو، مسخّرًا كل جهده لإتمام العمل ونشر الأفكار الجديدة التي كانت تغذي روح التنوير.

– 1765قام برحلة طويلة إلى إنجلترا، ألهمته تأملات مهمّة حول المجتمع والنظام السياسي الإنجليزي، الذي كان يُتّخذ نموذجًا من قبل فلاسفة التنوير، خصوصًا فولتير، في مقابل الأنظمة المطلقة التي كانت تهيمن على أوروبا القارية. لكن دُلباخ لم يشاطر هذا الحماس العام، ورأى أنّ حرية الشعب الإنجليزي أكبر وهمًا منها حقيقة، وهو ما كشف عن قربٍ من أفكار جان جاك روسو.

– 1766ألّف كتاب "المسيحية المكشوفة *Le Christianisme* " (*dévoilé*، وقد نُشر باسم مستعار وبمكان طبع مزيف، وكان بمثابة أول هجوم جذري على المسيحية، التي اعتبرها دُلباخ عقبة لا تُذلّل أمام المعرفة الحقيقية بالواقع.

– 1766-1770نشر سلسلة من الكتيّبات المناهضة للإكليروس، حيث ازدادت حدّة هجومه على المؤسسات الدينية. فصدرت تباعًا" :العدوى الدينية"، "التاريخ النقدي ليسوع المسيح"، "اللاهوت المحمول أو المعجم المختصر للمسيحية"، و**"مقال في الأحكام المسبقة"**. وكان مقتنعًا بأنّ السلطة الدينية والسياسية متلازمتان، وتشكلان معًا أساس كل أشكال الاستبداد. وفي كتاب "اللاهوت المحمول "كتب في مادة *البلاط" :من دون البلاط لا يمكن للكنيسة أن تزدهر، فالروح القدس يطير بجناح واحد. في البلاط يتقرّر في النهاية معنى الأرثوذكسية [...] ولولا قسطنطين لكانت صورة المسيح على الأرض بائسة للغاية".*

– 1770نشر عمله الأهم" :نظام الطبيعة *Système de la*) " *nature*)، الذي وُصف بأنه "إنجيل المادية الإلحادية" وحُكم عليه بالإحراق. وفيه تتجسّد كلّ نظرياته الأساسية: فالمادة والحركة كافيتان في ذاتها لتفسير الظواهر الطبيعية؛ والإنسان ليس إلا نتاجًا للطبيعة، وبالتالي فإنّ غايته القصوى هي إشباع حاجاته المادية والسعي وراء اللذة؛ وأمّا الإله فلا وجود له، والأديان ليست سوى أداة للاضطهاد. ومن هنا تنبع ضرورة، بحسب دُلباخ، قلب النظام السياسي والديني القائم...

ملاحظة بيوغرافية :

– 1770كان يطمح إلى الإطاحة بالمؤسسات القائمة لتأسيس مجتمع جديد من الملحدين، ومن ثمّ نشر السعادة العامة. وكان يحبّ أن يردّد» :*الفضيلة الحقيقية لا تنسجم مع الدين.*«

– 1772يكتب خلاصة لفكره بعنوان العقل السليم *Le Bon*) *Sens*)، امتاز عن أعماله السابقة بأسلوب أكثر إشراقًا وسهولة في القراءة. كما ترجم إحدى أهمّ مؤلفات المادية الإنجليزية، وهو كتاب طبيعة الإنسان (*Human Nature*) لـ توماس هوبز.

– 1776-1773في سنواته الأخيرة اتجهت اهتمامات البارون بوضوح نحو الأخلاق والسياسة .إذ أفسحت جدالاته المعادية للدين المجال أمام طرح عملي لتجديد اجتماعي يستلهم من أفكار مونتسكيو حول فصل

السلطات، وكان يروم تأسيس مجتمع أكثر علمانية وحرية. نشر كتاب السياسة الطبيعية (*La Politique Naturelle*) سنة 1773، وأتبعَه في 1776 بكتاب الأخلاق الكونية (*La Morale Universelle*) وكتاب الإتوقراطية أو مشروع الاتحاد بين الأخلاق والسياسة (*L'Ethocratie*).

– 1777أصيب بهجوم شديد من داء النقرس والتهاب الكُلى، فتدهورت صحته بسرعة.

– 1784وفاة صديقه الأقرب ديدرو، التي شكّلت له ضربة قاسية.

– 1789في حزيران/ يونيو، أي قبل شهر واحد من اقتحام الباستيل وبداية الثورة الفرنسية، توفي البارون دُلباخ عن عمر ناهز 66 عامًا. والمفارقة أنّ من اعتُبر، إلى جانب الماركيز دو ساد، أكثر الملحدين صلابةً ومجابهةً في عصره، أُجريت له جنازة دينية.

– 1813نُشر كُتيّبه "مقال في فنّ الزحف، لاستخدام رجال البلاط " (*Essai sur l'art de ramper, à l'usage des courtisans*)بعد وفاته، في المجلد الخامس من سلسلة "المراسلات الأدبية والفلسفية والنقدية الموجَّهة إلى أحد أمراء ألمانيا "التي حرّرها فريدريك ميلكيور غريم وديدرو، والذي كان قد أخفى بين أوراقه هذه "الطُرَف الفلسفية" لهولباخ.

مقال في فنّ الزحف

(Saggio sull'arte di strisciare)

تمّت الطباعة في تشرين الأول/أكتوبر 2009 لدى دار "إل نوفو ميلانغولو(Genova) "، من مطابع .Microart's S.p.A. – Recco (Ge)
التصميم والإخراج الطباعي Type & Editing – Genova

حياته وأعماله

ولد عام 1733 في اديشيم في امارة سبيير Speyer الأسقفية (في بافاريا) وعمد باسم بول هنريخ ديتريش گون هولباخ، ونشأ **كاثوليكياً** . وجمع جده ثروة من إدخال عرق الذهب من **هولندا إلى فرساي** . وفي **ليدن** درس بول العلوم وتعلم **اللغة الإنجليزية** .وبعد صلح أكس لاشبيل (1748) استقر به المقام في باريس وأصبح من رعايا فرنسا وتزوج من أسرة من خبراء المال، وحصل على النبالة باستثماره 110.000 جنيه بفائدة 5٪ في شركة سكرتيري الملك. وسماه المحيطون به "البارون" لأنه كان يمتلك في وستفاليا ضيعة تدر عليه ستين ألف جنيه سنوياً. وبلغت جملة دخله السني مائتي ألف جنيه. ويقول موريليه أنها ثروة لم يستغلها أحد استغلالاً أشرف ولا أنفع منه للعلم والفن(83) وكان يرعى موريفو وغيره من الكتاب أحسن رعاية (مثل دور ما سيناس بالنسبة لهم، وهو راعي هوراس وفرجيل في القرن الأول ق.م) وجمع مكتبة ضخمة ولوحات ورسومات وعينات ونماذج للتاريخ الطبيعي .

صالونه

أصبحت داره كما وصفها أحد الظرفاء "مقهى أوربا" وجعلت منه ولائم العشاء عنده وصالونه في باريس أو في داره الريفية "جراند فال" على حد تعبير هوراس وولبول "قهرمان الفلسفة" وأعدت مدام دي هولباخ كل يوم خميس ويوم أحد المائدة لأثني عشر ضيفاً. ولم يكونوا هم أنفسهم دائماً في كل مرة، ولكنهم كانوا على الأغلب من قادة الحرب ضد المسيحية: ديدرو: هلفشيوس، دالمبر، بولانجيه، ومريليه، سانت لامبرَت، مارمونتيل، وأحياناً بيفون، ترجو، وكني، كذلك جاء روسو ولكنه كان يرتاع للألحاد الذي يتدفق من حوله، وهناك كان ديدرو في ذروة الحماسة والعنف، أما الراهب جالباني فقد ابتعد عن الفلسفة حيث أفسد النظرية بالدعابة والسخرية. وكان عقد هذا الكنيس- كما كان البارون يسمى هذه الاجتماعات- يلتئم في الساعة القانية يتجاذبون أطراف الحديث ويأكلون ويتحدثون حتى الساعة السابعة أو الثامنة. وتلك كانت الأيام التي كانت فيها المناقشة أدباً غير مسطور وليس ثمة فوضى المقاطعة أو توافه الأمور. ولم يكن هناك موضوعات محظور الخوض فيها، أو كما قال موريليه "هذا هو المكان الذي تستمع فيه إلى أكثر المناقشة حرية وحيوية وتنويراً وتثقيفاً بالنسبة للفلسفة والدين

والحكومة، ولم يكن للهزل أو المزاح الخفيف مجال هناك"... وهناك فوق كل شيء أثار ديدرو عقولنا وألهب نفوسنا(84) وذكر ديدرو نفسه للآنسة فوللان أنهم تحدثوا في الفن والشعر وفلسفة الحب وفكرة الخلود، كما تحدثوا عن الإنسان والآلهة والفضاء والزمن وعن الموت والحياة(85). وقال مارمونتيل "إذا كان الطقس جميلاً استبدلنا بولائم العشاء أحياناً نزهات فلسفية سيراً على الأقدام على ضفاف السين، وكانت وجبة الطعام آنذاك أكلة سمك ضخمة، وكنا نذهب كل منا بدوره إلى أشهر الأماكن بهذا السمك، وعاد إلى سان كلو، وكنا نقصد مبكرين في أحد القوارب لنستنشق نسيم النهر ونعود في المساء عن طريق غابة بولونيا(87).

وبلغ صالون دي هولباخ من الشهرة حداً استخدم معه بعض زوار باريس من الأجانب نفوذهم للحصول على دعوة ليحضروا هذه اللقاءات. ومن ثم جاء في أوقات مختلفة هيوم وستيرن وجاريك وهوراس وولبول وفرانكلين وبريستلي وآدم سميث وبكاريا. زقد أزعجهم في بعض الأحيان وجود هذا العديد من الملحدين هناك. وكم من مرة سمعنا ديدرو يقول (لروميللي) أنه حين كان هيوم يشك في الوجود الفعلي للملحدين كان البارون يؤكد له "أنك تجلس إلى المائدة مع سبعة عشر(88)." وروى جيبون أن فلاسفة باريس "سخروا من تشكك هيوم الموسوم بالحذر، وبشروا بتعاليم ومعتقدات الملحدين مع

نفس التعصب الأعمى لدى الدوجماتيين (الدوجماتية أي الجزمية) توكيد الرأي بغطرسة دون مبرر وتمحيص كافيين وصب اللعنات على المؤمنين في تسخيف وازدراء(89)". كذلك روى بريستلي أن "كل الفلاسفة الذين تعرفت بهم في باريس كانوا لا يؤمنون بالمسيحية بل صرحوا بأنهم ملحدون(90)" ومهما يكن من أمر فإن موريليه لحظ "أن عدداً كبيراً منا كانوا ملحدين ولم يخجلوا من ذلك. ودافعنا بشدة عن أنفسنا ضد الملحدين، على الرغم من إننا أحببناهم لحسن رفقتهم وصحبتهم".(91) ورأى ووليول أن "وكر الفلاسفة" لدى دي هولباخ يؤذي ذوقه الإنجليزي. وما كان أشد امتعاضه حين رأى رينال يعرف عن تجارة إنجلترا ومستعمراتها أكثر مما يعرف هو إلى حد أنه ادعى الصمم. أما بيان هيوم فكان فيه مجاملة بالغة، أن رجال الأدب هنا (في باريس) مقبولون يرتاح المرء إلى معاشرتهم، وكلهم رجال ذوو شهرة واسعة يعيشون في انسجام تام (أو يكاد يكون تماماً) بينهم جميعاً، ولا تشوب أخلاقهم شائبة، وقد يكون مبعث أعظم الرضا عندك ألا يكون بينهم ربوبي واحد.(92) والأرجح أن هذا التصريح يدعو إلى الحيرة والارتباك.

ولكن اتفق رأي الجميع على أن البارون وقرينته كانا مضيفين مثاليين وشخصيتين محببتين إلى النفوس. وعلى حد تعبير جريم: عاشت مدام دي هولباخ لزوجها فقط، فكانت إذا فرغت من الترحيب بضيوف

زوجها وتقديم ما لذ وطاب لهم آوت إلى ركن منعزل وانصرفت إلى شغل الأبرة، دون أن تشترك في مناقشاتهم(93)، وماتت في عام 1754 في ريعان شبابها وظل دي هولباخ لبعض الوقت يعاني يأساً تاماً(94) وبعد عامين تزوج من أختها التي أثبتت أنها مخلصة قدر إخلاص أختها. وكان متواضعاً في سلوكه وعاداته وديعاً في مناقشته، لا تعلم شماله ما فعلت يمينه من بر وإحسان(95)، حتى لم يكد أحد يرتاب في أنه كتب مثل هذا الدفاع القوي عن الإلحاد في كتابه "نهج الطبيعة" فكتبت مدام جيوفرين منافسته في عقد الندوات وإقامة المآدب في صالونها: "لم أرَ قط رجلاً في غاية البساطة مثله"(96)، أما روسو الذي درج على كراهية كل جماعة الفلاسفة تقريباً فإنه احتفظ بإعجابه بشخصية دي هولباخ وخلقه إلى حد أنه اتخذه نموذجاً لفولمار الفاضل الذي يعتنق مذهب اللاأدرية في رواية "هلواز الجديدية". وكتب جريم الذي حلل كل إنسان فيما عدا روسو في موضوعية رصينة: "كان طبيعياً أن يؤمن البارون دي هولباخ بإمبراطورية العقل، فقد كان هواه، (ونحن دائماً نحكم على غيرنا بمقدار عواطفنا) أن يضع الفضيلة والمبادئ القويمة في المقام الأول وكان من العسير عليه أن يضمر الكراهية لأي من الناس، ومع ذلك كان لا يستطيع دون جهد جهيد أن يخفي مقته الصريح لرجال الدين... فكلما تحدث عنهم تخلى عنه خلقه الرضي بطبيعته"(97).

دائرة المعارف

ومن هنا ساند دي هولباخ "دائرة المعارف" أكبر مساندة وأسهم فيها بماله ومقالاته. وطمأن ديدرو وشجعه حتى حين تخلى دالمبير وفولتير عن المشروع، وكانت مقالاته في معظمها عن العلوم الطبيعية، فإنه من من الجائز أن البارون كان في هذا الحقل أوسع الفلاسفة إطلاعاً. وكتب جريم في 1789. "لم ألتقِ قط برجل أكثر منه علماً وإطلاعاً، ولم أرَ قط، رجلاً أقل منه اهتماماً بالتظاهر بالعلم في أعين الناس"(98). وترجم عن الألمانية كثيراً من الرسائل العلمية بمساعدة نيجيون، ومن أجل هذا عين عضواً في أكاديميتي برلين وبطرسبورج، زلم يحاول قط أن يلتحق قط بالأكاديمية الفرنسية.

وافتتن دي هولباخ بالعلم وتوقع من ورائه نهوضاً سريعاً بحياة الإنسان، ومن ثم فإن البارون نظر نظرة عدائية بالغة العداء إلى الكنيسة التي بدا أن سيطرتها على التعليم تسد الطريق أمام المعرفة العلمية، فانتهز كل فرصة لمهاجمة رجال الدين فكتب مقالتي "آباء الكنيسة" و "الحكومة الدينية" لدائرة المعارف. فمنذ 1766 فصاعداً نظم مع نيجبون مصنعاً حقيقياً لإخراج الأدب المعادي للكنيسة. ثم ظهر في تعاقب سريع "قائمة

القديسين"، "والوقفة المقدسة" و"آباء الكنيسة بغير قناع" و "القساوة الدينية وتحطيم الجحيم" وهنا جاء البشير بأنباء سارة- القضاء على الجحيم .

الملحد

وفي 1761 صدر عن هذا الذي أطلق عليه بعضهم معمل الإلحاد كتاب عنوانه "المسيحية في خطر" كتبه أساساً دي هولباخ، ولكنه نسب في صحيفة العنوان إلى بولانجيه الراحل. وبسبب بيع هذا الكتاب اتهم ووصم بالعار أحد الباعة الجائلين وعوقب بالتجديف في السفن الشراعية لمدة خمس سنين. ولقي مثل هذا الجزاء لمدة تسع سنين غلام اشترى هذا الكتاب ليبيعه ثانية(99). وكان الكتاب هجوماً مباشراً على التحالف بين الكنيسة والدولة كما إنه استبق حقاً وصف ماركس للديانة بأنها "أفيون الشعوب ."

" إن الديانة هي فن تخدير الناس بالحماسة (وفي القرن الثامن عشر كانت هذه اللفظة تعني الغيرة الدينية) لتحول بينهم وبين مناهضة المساوئ والمظالم التي يعانونها من حكامهم. ولم يعد فن الحكم إلا مجرد الإفادة من أخطاء وخمول الذهن والنفس، وهي ما غرقت فيه الأمم بفعل الخرافة... وبتهديد الناس بالقوى الخفية استطاعت الكنيسة والدولة أن تفرضا على الناس أن يعانوا ويحتملوا في صمت ما يلقون من عنت وشقاء من القوى المرئية، وفرض عليهم أن يأملوا في السعادة في

الحياة الآخرة إذا وافقوا على أن يكونوا بائسين في هذه الحياة الدنيا"(100). ورأى دي هولباخ في اتحاد الكنيسة والدولة السيئة الجوهرية أو الشر الأساسي في فرنسا. "أني بوصفي مواطناً أهاجم الديانة لأنها تبدو لي ضارة بسعادة الدولة معادية للعقل البشري ومناقضة للفضيلة الحقة أو الخلق القويم"(101). "إن المسيحي يلقن، بدلاً من الفضيلة والأخلاق القويمة، الخرافات الخارقة القائمة على المعجزات والمبادئ والتعاليم البعيدة عن التصديق لديانة تتنافى تماماً مع العقل السليم. إن هذا المسيحي منذ أول لحظة في دراسته يتعلم ألا يثق فيما تشهد به حواسه وأن يخضع عقله..... ويعتمد اعتماداً أعمى على ما يقرره أستاذه. إن أولئك الذين حرروا أنفسهم من هذه الأفكار يجدون أنهم عاجزون لا حول لهم ولا قوة أمام الأخطاء التي رضعوها مع ألبان أمهاتهم"(102). ودفع دي هولباخ بأن بناء الفضيلة والأخلاق على المعتقدات الدينية عمل فيه مجازفة ومخاطرة، لأن هذه المعتقدات عرضة للتغيير وقد يدمر انهيارها القانون الأخلاقي القائم على أساسها أو المتفق معها.

"إن كل من يكتشف ضعف أو زيف البيانات التي قامت عليها ديانته... لابد يميل إلى الاعتقاد بأن الفضيلة والأخلاق وهمية مثل الدين الذي قامت عليه. وهذا يوضح كيف أن لفضتي "كافر وخليع" أصبحتا مترادفتين، ولن يكون ثمة ضرر من تعليم أخلاق طبيعية بدلاً من

أخلاق لاهوتية، وبدلاً من تحريم الزنى والجرائم والرذائل لأن الله والدين حرماها، يجدر بنا القول بأن كل إفراط يؤذي الإنسان ويحول دون صيانته والإبقاء عليه ويجعله جديراً بالازدراء في أعين المجتمع... وهو كذلك إفراط يحرمه العقل وتحرمه الطبيعة التي تريد للإنسان أن يعمل من أجل سعادته الدائمة"(103).

وأنه لمن العسير أن نفهم كيف أن رجلاً نعم بمثل هذا الثراء يجد فسحة من الوقت ليؤلف مثل هذا العدد الكبير من الكتب أو يحث على تأليفها. وفي 1767 أخرج "اللاهوت السهل الحمل Theologie Portative" سخر فيه سخرية بالغة من المبادئ السخيفة، وأجمل كل اللاهوت في رغبة الكنيسة في التسلط والسيطرة. وفي 1768 نشر "العدوى المقدسة أو التاريخ الطبيعي للخرافة" متظاهراً بترجمته عن "جان ترنشارد الإنجليزي". وفي نفس العام أصدر "رسائل إلى أوجيني" أو الصيانة صد الآراء المسبقة (دون تمحيص) والمزعوم أنه بقلم فيلسوف أبيقوري في سكو .Sceaux وفي 1769 صدر "بحث في الآراء المسبقة" من تأليف مسيو دي مارسي Marsais يوضح أن العلاج الوحيد لمساوئ الدين هو نشر التعليم والفلسفة. وفي 1770 نشر البارون النشيط تحفته الرائعة، وهو أقوى كتاب فذ صدر في الحملة ضد المسيحية.

منهج الطبيعة

كان المزعوم أن كتاب نظام الطبيعة أو قانون العالم المادي والعالم المعنوي طبع في لندن. ولكنه طبع في الواقع في أمستردام في مجلدين كبيرين يحمل اسم مسيو ميرابو Mirabaudوكأنه المؤلف. وهذا الرجل الذي كان قد فارق الحياة منذ عشر سنوات كان سكرتير الأكاديمية الفرنسية. وجاء في المقدمة عرض لتاريخ حياته ومؤلفاته ولم يصدق أحد أن الرجل الطيب المثالي ميرابود ألف مثل هذا الكتاب .

وفي 1770 بعد أن قررت جمعية رجال الدين أن تجمع كل أربع سنوات منحة مالية للملك وأهابت به أن يمنع تداول المؤلفات المعادية للمسيحية، والتي انتشرت كثيراً في فرنسا. فأصدر لويس الخامس عشر أوامره إلى النائب العام أن يتخذ الإجراءات فوراً. وشجب برلمان باريس سبعة كتب من بينها كتاب دي هولباخ "فضح أسرار المسيحية ونظام الطبيعة"، باعتبارها بعيدة عن التقوى، مليئة بالتخريف، محرضة على الفتنة، نزاعة إلى القضاء على كل فكرة عن الألوهية، وإلى إثارة الشعب للتمرد على ديانته وحكومته، والقضاء على كل مبادئ الأمن العام والأخلاق، وصرف الناس عن واجب الطاعة والإذعان لمليكهم. وكان ينبغي إحراق الكتب واعتقال مؤلفيها وعقابهم عقاباً صارماً. ويقول

موريليه أن كثيراً من الناس عرفوا أن دي هولباخ هو المؤلف وأنهم كتموا السر لمدة عشرين عاماً. وظلت الندوة تعقد الاجتماعات. وعدت مدام دي هولباخ إلى بعضها كانون برجييه الذي كان لتوه قد تلقى معاشاً من رجال الكنيسة لمقالاته الرائعة التي كتبها دفاعاً عن الكنيسة الكاثوليكية. وارتاب كثيراً من الناس في أن ديدرو كتب بعض أجزاء من الكتاب ولكنه في جملته كان حسن الترتيب وحسن الأسلوب مما يستبعد أن يكون بقلم ديدرو، ولكنه ربما أسهم فيه بالمناجاة المتألفة البليغة للطبيعة في آخر الكتاب. وعلى أية حال لم يشعر ديدرو بالأمن والطمأنينة في باريس ورأى من الحكمة أن يزور لانجرز.

ووصل كتاب "نظام الطبيعة" مهرباً من هولندا، وتهافت على شرائه جمهور كبير يشمل كما روى فولتير العلماء والباحثين والجهّال والسيدات(104). وسر به ديدرو فقال "إن ما أحب هو فلسفة واضحة محددة صريحة مثل تلك الموجودة في كتاب نظام الطبيعة، والمؤلف ليس ملحداً في أي من الصفحات، وهو ربوبي في بعضها، وفلسفته تجري على نسق واحد"(105). وهذا يختلف عن ديدرو كل الاختلاف. أن ما أحبه في الحقيقة هو أن دي هولباخ كان ملحداً في كل صفحات الكتاب. ومع ذلك فإن الكتاب كان مشرباً بروح تقارب التفاني الشديد أو الإخلاص الديني في سعادة المبشر. أن دي هولباخ رأى عالماً يسوده البؤس والشقاء. حيث يحكمه الملوك والقساوسة ومن ثم خلص إلى أن الناس

سيكونون أسعد حالاً لو انهم وَلوا ظهورهم لرجال الدين والملوك واتبعوا رجال العلم والفلسفة. وإن العبارات الأولى في الكتاب لتنبئ عن روحه وفكرته الرئيسية : "إن مصدر شقاء الإنسان وبؤسه هو جهله بالطبيعة. إن إصراره على التمسك بالآراء الخاطئة العمياء التي تلقنها في طفولته... وما نتج عن ذلك من تحيز وهوى ظللا عقله وأفسدا ذهنه.. يبدو أنهما قضيا عليه بالاستمرار على الخطأ... أنه يستمد أسلوب تفكيره من الآخرين تحت مسئوليتهم، ثقة منه بهم، وهم أنفسهم مخطئون، أو أن لهم مصلحة في تظليله وخداعه. ولإزالة هذه الغشاوة وإخراجه من هذه المتاهة فإن الأمر يتطلب يداً حانية وحباً شديداً... كما يقتضي أعظم الشجاعة التي لا يعتريها خوف ولا وجل وتصميماً أكيداً لا يكل ولا يمل.... ومن ثم يكون أهم واجب علينا أن نفتش عن الوسائل التي نقضي بها على الأوهام التي تظللنا وتخدعنا. وينبغي أن نفتش عن العلاج لهذه المساوئ في الطبيعة نفسها. ففي وفرة مواردها وحدها يمكن أن نتوقع في تعقل وجود الترياق الشافي من كل الشرور التي جلبتها علينا حماستنا الطاغية الموجهة أسوأ توجيه. لقد حان الوقت للبحث عن هذا العلاج ومواجهة هذه المساوئ بشجاعة وفحص أسسها وتدقيق النظر في مقوماتها. أن العقل بخبرته الهادئة المخلصة ينبغي أن يقتلع من الجذور هذه الأهواء التي كان الجنس البشري هو الفريسة الوحيدة لها لأمد طويل. ولنحاول أن نغرس في الإنسان الشجاعة واحترام عقله مع حب

لا يفتر للحقيقة، بهدف أن يلتمس المشورة والرأي من خبرته، فلا يعود العوبة لخيال توجهه السلطات توجيهاً مظللاً. ويتعلم أن يبني أخلاقياته على الطبيعة وعلى حاجياته وعلى المنفعة الحقيقية للمجتمع، ويتجرأ على أن يحب ذاته، ويصبح كاهناً فاضلاً عقلانياً. وفي هذه الحالة لابد أن يكون سعيداً(106).

وبعد أن انتهى دي هولباخ من بيان برنامجه على هذه النحو تقدم في ترتيب ونظام ليفند كل الكائنات والاعتبارات والأفكار الخارقة للطبيعة. ويحبذ الطبيعة بكل ما فيها من جمال وقسوة وتقييد وإمكانات، وليختزل كل الحقيقة والواقع إلى مادة وحركة، ويبني على هذا الأساس المادي منهجاً للفضيلة والأخلاق يأمل أن يكون في مقدوره أن يحول المتوحشين إلى مواطنين، ويشكل الخلق الفردي والنظام الاجتماعي ويضفي سعادة معقولة على حياة مقرر لها الموت المحتوم. إنه يبدأ ويختتم بالطبيعة، ولكنه ينكر أية محاولات لتشخيصها أو تجسيدها .

إنه يحددها ويعرفها بأنها الكل الأعظم الذي ينتج من اجتماع المادة في مجموعاتها المختلفة. وهذا هو الاسم المحبب لدى دي هولباخ للكون، فهو يعرف المادة في حرص وحذر بأنها بصفة عامة، كل ما يؤثر على حواسنا بأي شكل كان "كل شيء في الكون في حركة دائبة. وجوهر المادة هو أن تعمل، وإذا تأملناها في يقظة تامة لاكتشفنا أنه ليس ثمة جزء صغير فيها ينعم بسكون مطلق، وكل ما يبدو لنا أنه ساكن لا يبقى ولو للحظة واحدة على نفس الحالة، وكل الكائنات تتناسل وتتكاثر

وتتناقص وتتفرق باستمرار... إن أشد الصخور صلابة تتصدع بدرجات متفاوتة أمام لمسات الهواء(107).

إن هذا الكل لا يقدم لمجال تأملنا وتفكيرنا "إلا مجرد تعاقب ضخم متصل غير متقطع لأسباب ونتائج"(108). وكلما ازدادت معرفتنا وجدنا أبلغ دليل على أن الكون يعمل من خلال الأسباب الطبيعية وحدها. وقد يكون من العسير أن ندرك كيف "أن المادة الجامدة يمكن أن تكون فيها حياة" ولكن يكون من الأصعب أن تصدق أن الحياة خلق أو نتاج خاص لوجود خفي خارج عن الكون المادي. ومن العسير معرفة كيف يمكن أن تحس المادة أو تشعر ولكن سائر خواص المادة مثل "الجاذبية والمغناطيسية والمرونة والكهربية، ليست، أقل صعوبة في إدراكها وفهمها من الشعور أو الإحساس"(109).

والإنسان كذلك "كائن مادي صرف خاضع لنفس القوانين التي تحكم سائر العالم. وكيف يتسنى لجسم مادي وذهن غير مادي أن يتفاعل كل منهما مع الآخر؟ أن "الروح" هي مجرد تنظيم الجسم ونشاطه ولا يمكن أن يكون له وجود مستقل. أن القول بأن الروح ستحس وتفكر وتنعم وتعاني بعد فناء الجسم مثل الزعم بأن الساعة التي تتهشم إلى ألف قطعة تستمر في دقاتها ساعة بعد ساعة!... وتبين مرور الوقت(110). إن مفهوم الذهن والجسم على أنهما وجودان غير ماديين عوق معالجتنا للأمراض العقلية. وإذا اعتبرنا الذهن وظيفة من وظائف الجسم فإننا

بذلك نمكن علم الطب من شفاء الكثير من الاضطرابات العقلية بالقضاء على أسبابها الجثمانية .

ومن حيث أن الذهن وظيفة من وظائف الجسم فأنه أي الذهن خاضع للقاعدة الكونية، قاعدة الأسباب والنتائج الطبيعية. والفصل الحادي عشر من كتاب "منهج الطبيعة أفصح وأبلغ دفاعاً عن مذهب الحتمية (الإيمان بالقضاء والقدر) في مجال الفلسفة الفرنسية بأسرها .

"إن حياة الإنسان قضت عليه الطبيعة برسنه على سطح الأرض دون أن يكون لديه القدرة على الانحراف عنه قيد أنملة. أنه ولد دون رضاه. أن كيانه أو تنظيمه لا يتوقف البتة على نفسه. إن الأفكار التي تخالجه تأتي قسراً لا طوعاً، وعاداته واقفة تحت سيطرة الذين يحملونه على التخلي عنها. ويتعدل الإنسان ويتغير بلا انقطاع نتيجة أسباب وعلل مرئية أو خفية ليس له سلطان عليها ولا تحكم فيها، وهي بالضرورة تنظم أسلوب وجوده وتصبغ تفكيره بصبغة معينة، وتقرر طريقة تصرفه وأفعاله، فهو طيب أو رديء، سعيد أو تعس، عاقل أو أحمق، ومتعقل أو غير متعقل دون أن يكون لإرادته دخل في أي من هذه الحالات المختلفة(113).

ويبدو أن هذه الحتمية تنطوي على الجبرية وعلى النقيض من معظم الفلاسفة يرتضي دي هولباخ هذا التضمين... إن حالة الكون في أية لحظة تحددها حالته في اللحظة السابقة، وهذه حددتها سابقتها، وهكذا

دواليك في الماضي، ومن ثم فان أية لحظة في تاريخ الكون تعتبر محددة لأية لحظة في المستقبل. أن شئت أن الإخضاع الواضح للإنسان المتميز بكل العبقرية أو القديس بأي مفهوم أو بكل التضرع والصلوات – لغاز بدائي، لا يفت في عضد دي هولباخ فأنه يتقبل مصيره في كبرياء أبيقورية: "إن الإنسان من عمل الطبيعة، وهو يوجد في الطبيعة، خاضع لقوانينها، ولا يملك تخليص نفسه من هذه القوانين، ولا يمكنه أن يخطو فيها ورائها خطوة واحدة حتى في فكره. ولذلك فأنه بدلاً من البحث خارج العالم... عن كائنات توفر له السعادة التي تنكرها عليه الطبيعة يحمل به أن يدرس هذه الطبيعة ويعرف قوانينها ويتأمل في قواها ويراعي القواعد الثابتة التي تعمل بمقتضاها. فليطبق الإنسان كل ما يتصل إليه على هناءته هو ويخضع في صمت لما تفرضه عليه من الحماية أو الوصاية التي ليس في مقدور أحد تبديلها أو تغييرها، ويرتضي مبتهجاً أن يتجاهل الأسباب والعلل التي يحول بينه وبينها حجاب كثيف لا يمكن اختراقه، ويستسلم دون تذمر لقوانين الضرورة الكونية التي يستحيل عليه إدراكها إطلاقاً. ولا تحرره أبداً من تلك القوانين التي فرضت عليه بحكم ماهيته أو جوهره(114).

وهل تبرر لنا هذه "الجبرية" (أي الأيمان بالقضاء والقدر) أن نخلص إلى أنه لا فائدة ترجى من وراء محاولتنا تفادي الشرور أو السيئات والأعمال المخزية أو المرض، وأن نكف عن بذل أي جهود، أو

عن الطموح أو التطلع وأن ندع الأمور تجري في أعنتها؟ ويجيب دي هولباخ بأنه حتى هنا ليس لنا الخيرة من أمرنا، فإن الوراثة والبيئة هما اللتان قررتا بالفعل أن نستسلم للدعة وعدم المبالاة، أو أن نستجيب في جد ونشاط لمتطلبات الحياة وتحدياتها، ويسبق دي هولباخ إلى الاعتراض على أن هذه الجبرية – وهي تبدو كأنها تتغاضى عن الجريمة وتغتفرها – قد تزيد منها. أن الجبرية لا توحي بعدم معاقبة الجريمة بل إنها على النقيض من ذلك ستؤدي بالشرع والمعلم والرأي العام أن يصنعوا بمقتضى القوانين أو الأخلاق عوائق أفضل في سبيل ارتكاب الجرائم، ويوفروا الدوافع والمغريات بالسلوك الاجتماعي القويم، وهذه العوائق والدوافع والمغريات ستنضم إلى العوامل البيئية التي تشكل سلوك الإنسان. ولكن الجبرية لا تسوغ لنا اعتبار الجرائم وكل السلوك غير الاجتماعي اختلال توازن عقلياً يرجع إلى الوراثة والظروف. ولذلك يجدر بنا أن نعالج مثل هذا السلوك كما نعالج المرض، وأن نتخلى عن التعذيب والعقوبات البالغة الصرامة لأنها تزيد الهوة بين الفرد والمجتمع، وتعود الناس على عنف والقسوة، أكثر مما تصرفهم عن ارتكاب الجرائم .

وليس في هذه الفلسفة بطبيعة الحال مكان للإله. إن مقت دي هولباخ الشديد لمذهب التوحيد (الإيمان بالله الواحد) وحده، بل لمذهب الربوبية ومذهب وحدة الوجود كذلك دعا معاصريه إلى أن يطلقوا عليه

"العدو الشخصي لله سبحانه وتعالى(115). وإذا عدنا إلى الوراء إلى البداية فإننا نجد دائماً إن الجهل والخوف خلقا الآلهة وزينهم الخيال أو الحماسة أو الخداع أو شوهوهم وعيدهم الضعف، وأبقت عليهم السذاجة أحياء، وأجلهم واحترامهم العرف والعادة، وناصرهم الطغيان....ليخدم أغراضه(116) ويثير ضدهم كل الحجج القديمة، ويتحمس بعنف كما فعل هلفشيوس ضد مفهوم الأسفار المقدسة عن الإله(117) ولا يوحي إليه النظام والتناسق الرائعان للكون بأي "عقل أسمى" فإن هذا النظام وهذا التناسق يرجعان إب أسباب طبيعية تعمل بطريقة ميكانيكية، ولا يتطلب المر أن نعزوها إلى أي إله يمكن أن يكون هو ادق على الفهم والتوضيح أكثر من العالم. والنظام والاختلال مثل الخير والشر والجمال والقبح كلها مفاهيم ذاتية (غير موضوعية) مستمدة من اللذة أو الألم الذي توفره لنا مدركاتنا الحسية. ولكن الإنسان ليس "مقياس كل شيء" وليس إشباع رغباته أو رضاؤه معياراً موضوعياً يمكن تطبيقه على الكون. إن الطبيعة تسير قدماً دون اعتبار لما نراه نحن من أصغر نقطة في الفضاء حسناً أو سيئاً، قبيحاً أو جميلاً. ومن وجهة نظر الكل "ليس هناك ما يمكن أن يكون سيئاً حقاً، فإن الحشرة تأوي إلى ملجأ آمن في أطلال القصر الذي يسحق الناس عند سقوطه"(118) وينبغي أن نتعلم أن نعتبر الطبيعة في سموها وكوارثها محايدة بقدر سواء حياداً يتسم برباط الجأش :

"إن كل ما قيل في سياق هذا الكتاب يثبت بوضوح أم كل شيء قريب متناسب مع الطبيعة، حيث لا تعمل فيها كل الكائنات إلا أن نتبع القوانين التي فرضت عليها كل حسب درجته أو طبيعته. إن الطبيعة توزع بنفس اليد ما يسمى نظاماً وما يسمى اختلالاً، وما يسمى لذة وما يسمى ألماً، وقصارى القول أنها بمقتضى ضرورة تنشر الخير والشر..ولذلك يجدر بالإنسان ألا ليمتدح سخاءها أو يصب عليها جام غضبه وحقده، أو يتصور أن صخبه وضجيجه أو تضرعاته وابتهالاته يمكن أن تغني عنه من شيء أو تكبح جماح قوة الطبيعة الهائلة أو سلطانها العظيم وهي تعمل دوماً وفق قوانين ثابتة...فإذا عانى الإنسان شيئاً فلا يجوز له أن يلتمس علاجاً في الأوهام التي يصدرها له خياله المستقيم، بل يستمد من مخازن الطبيعة العلاجات التي تقدمها للشرور والمساوئ التي تبتليه بها، ويفتش بين أحضانها عن المنتجات التي أنتجتها الطبيعة نفسها(119).

ويقترب هولباخ من تقديم الإله ثانية في شكل "الطبيعة"، وبعد أن يأخذ على نفسه ألا يشخصها أو يجسدها نراه يميل إلى تأليهها، ويتحدث عن قدرتها وإرادتها وخطتها وسخائها، ويرى فيها أفضل هاد ومرشد للإنسان، ويجيز لديدرو(؟) أن يكتب لها مناجاة عزيزة وكأنها الفقرة الختامية لكتاب ضخم "أيتها الطبيعة، يا سيدة كل الكائنات!! إن بناتك الفاتنات الجديرات بالتوقير والعبادة- الفضيلة والعقل والحقيقية- يبقين

إلى الأبد معبوداتنا الوحيدات. إن إليك تتجه كل تسابيح الجنس البشري وينصب عليك ثناؤه، وإليك يقدم كل ولائه وإجلاله، وهكذا. ومثل هذه التقوى الموسومة بمذهب وحدة الوجود (القائل بأن الله والطبيعة شيء واحد وأن الكون المادي والإنسان ليسا إلا مظاهر الذات الإلهية). هذه التقوى لا تكاد تتسق مع نظرة دي هولباخ إلى الطبيعة على أنها تنزل الخير والشر دون تحيز، "إن الرياح والعواصف والزوابع والبراكين والحروب والطاعون والمرض كلها ضرورية لمسيرتها الأبدية (وليس في كل مكان) مثل حرارة الشمس الصحية المفيدة(120) وهكذا يذكرنا بإله كلفن الضنين بالجنة المسرف في عذاب النار ."

إن دي هولباخ في حالته النفسية المميزة ينكر لا مجرد فكرة الله، بل نفس لفضته إن لفضتي الإله ويخلق... ينبغي أن تختفيا من لغة أولئك الذين يريدون التحدث بلغة مفهومة. إن هاتين لفظتان مجردتان ابتدعهما الجهل، إنهما مبتدعتان لإرضاء من تعوزهم الخبرة، الخاملين والجبناء إلى الحد الذي لا يدرسون معه الطبيعة وأساليبها(121). وأنه ليرفض البروبية التي تنسجم مع الخرافة(122) وتصنع من الإلحاد ديناً حقيقياً .

" إن صديق الجنس البشري لا يمكن أن يكون صديقاً للإله الذي كان في كل الأوقات سوطاً مسلطاً على الأرض. إن رسول الطبيعة لن يكون أداة الأوهام المظللة التي تجعل الدنيا مقراً للخداع. إن من يقدس الحقيقة لن ينسجم مع الزيف والباطل. إنه يعلم أن سعادة الجنس

البشري تقتضي بشكل لا رجعة فيه، تقويض صرح الخرافة المظلم المقلقل من أساسه، لكي يقيم على أطلاله معبداً للطبيعة ملائماً للسلام - هيكلاً مقدساً للفضيلة... فإذا ذهبت جهوده أدراج الرياح وإذا لم يستطع أن يبث الشجاعة في الكائنات التي اعتادت أن ترتعد فرائصها جبناً، فإن له على الأقل أن يفاخر بتجاسره على أن يقوم بالمحاولة. وعلى الرغم من ذلك فإنه يحكم على جهوده بأنها عقيمة إذا استطاع أن يجعل إنساناً واحداً سعيداً أو يهدئ من اضطرابات ذهن مستقيم واحد، وأقل ما يقال أنه سوف يفيد من تحرير ذهنه هو من إرهاب الخرافة المزعج... ومن أنه وطئ تحت قدميه الأوهام التي تقض مضاجع المنكودي الحظ وتعذبهم. وإذ نجا على هذا النحو من خطر العاصفة استطاع أن يتأمل في هدوء من قمة صخرته في تلك الأعاصير المروعة التي أثارتها الخرافة، ويمد يد العون إلى أولئك الذين يتقبلونها(123).

الأخلاق والدولة

ولكن هل ينسجم الإلحاد مع الأخلاق الشعبية العامة؟ وهل يمكن ضبط الدوافع القوية الأنانية لدى عامة الناس بقانون أخلاقي مجرد من الإخلاص للدين ومن تأييده؟ أن دي هولباخ واجه هذه المشكلة في كتابه "منهج الطبيعة" ثم عاد إليها في 1776 في كتاب ذي ثلاث مجلدات "الأخلاق العامة" وأنه يرتاب بادئ ذي بدء في أن الديانة سعت إلى الفضيلة والأخلاق القويمة. "على الرغم من الجحيم المروعة البغيضة حتى في مجرد وصفها، فأي حشد من المجرمين المتهتكين يملأ مدننا... وهل اللصوص أو القتلة المعاقبون ملحدون أو متشككون؟ إن هؤلاء البائسين يؤمنون بالله. وهل يتحدث أكثر الآباء تمسكاً بالدين وهو ينصح ابنه عن إله محب للانتقام؟ إن انهيار صحته من أثر الزنى وضياع ثروته في الميسر، وازدراء المجتمع له - هي الدوافع التي دعت الولد إلى النصح"(124).

وحتى مع افتراض أن الدين في بعض الأحيان يساعد الأخلاق، فهل يتوازن هذا مع الضرر الذي يلحقه الدين بالإنسان؟ في مقال إنسان جبان واحد تكبح فكرة الجحيم جماحه هناك آلاف من الناس لا تؤثر فيهم هذه الفكرة مطلقاً، وهناك ملايين منهم تجعلهم هذه الفكرة غير

عقلانيين، يعوزهم التفكير السليم، وتحولهم إلى أدوات اضطهاد وتعذيب وحشيين، وتحولهم إلى خبثاء أشرار... ومتعصبين. كما أن هناك ملايين تفسد عقولهم وتصرفهم عن واجبهم نحو المجتمع(125).

وتأمل في النفاق الذي يفرضه الضبط الاجتماعي للدين على المتشككين. أولئك الذين يريدون أن يكونوا فكرة عن القيود التي فرضها اللاهوت على عقول وتفكير الفلاسفة الذين ولدوا في ظل "الديانة المسيحية" فليقرؤوا الرومانسيات "القصص الخيالية" الميتافيزيقية التي كتبها ليبنتز وديكارت ومالبرانش وكودورث وغيرهم ويفحصوا في هدوء النظم والترتيبات البارعة ولكن الحماسية المسماة "التناسق المقرر مقدماً للأسباب العرضية(126).

وفوق ذلك فإن المسيحية بتركيزها فكر الإنسان على الخلاص الفردي في الدار الآخرة، أماتت الشعور الإنساني والاجتماعي في مثل هذا الفرد، وتكرت الناس غير شاعرين ببؤس رفاقهم، وبالجور والإجحاف اللذين يتعرضون لهما من قبل الجماعات والحكومات الظالمة.

ويرفض دي هولباخ الفكرة المسيحية الفولتيرية التي تقول بأن الإنسان يولد ولديه حلسة الصواب والخطأ. إن الضمير ليس صوت الله بل صوت رجل الشرطة، إنه رواسب وتراكم آلاف من التحذيرات والأوامر والتأنيبات تلقاها الفرد منذ نشأته "ويمكن تعريف الضمير بأنه

معرفتنا بآثار أفعالنا على رفاقنا ثم إنعكاسها أو رد فعلها على أنفسنا(127). ويمكن لأن يكون هذا الضمير موجهاً أو مرشداً زائفاً، فلربها تشكل هذا الضمير نتيجة تعليم منحرف أو خبرة أسيء فهمها، أو تفكير خاطئ، أو رأي عام فاسد. وليس ثمة رذيلة أو جريمة لا يمكن إظهارها في ثوب الفضيلة عن طريق التعليم أو القدوة السيئة ومن ثم فإن الزنى مهما يكن من أس تحريم الدين له عمل يبعث على الفخر. والتملق الذليل مستساغ في البلاط واغتصاب النساء والسلب والنهب بين الجنود مكافآت مشروعة للمخاطرة بالحياة وتقطيع الأوصال. "أنا لنرى رجالاً أغنياء لا يعانون من وخز الضمير لما جمعوا من ثروة على حساب مواطنيهم" و "وطنيين متحمسين متعصبين لوطنهم أعمت ضمائرهم الأفكار الزائفة الباطلة فأغرتهم بإبادة من يخالفونهم في الرأي دون شعور بالندم أو تأنيب الضمير" وخير ما نأمل فيه ضمير تشكل عن طريق تعليم أفضل، واكتساب عادة التطلع إلى آثار على غيرنا وعلى أنفسنا، وعن طريق رأي عام أسلم وأصح يتردد أي فرد عاقل في الإساءة إليه(128).

ويتفق دي هولباخ مع المسيحية في أن الإنسان بطبيعته نزاع إلى "الإثم" أي إلى السلوك الضار بالجماعة، ولكنه يرفض فكرة أن هذه الطبيعة النزاعة للإثم "موروثة خطيئة آبائنا الأولين، باعتبارها فكرة سخيفة. ويقبل الأنانية باعتبارها جوهرية في سلوك البشر، ويرى مثل

هلفشيوس أن يبني عليها قانونه الأخلاقي، بأن يجعل السلوك الاجتماعي مفيداً للفرد. "فالأخلاق تصبح علماً عقيماً إذا لم تثبت للإنسان بما لا يقبل الجدل أن مصلحته تكمن في تمسكه بالفضيلة(129) ويمكن أن يتحقق لنا شيء من تعليم يوضح اعتماد مصلحة الفرد على مصلحة الجماعة. ويمكن بث درجة معقولة من الغيرية- حب الغيرة" باستثارة الرغبة الطبيعية في كسب الاستحسان الاجتماعي العام والتفوق والامتياز والمكافآت. وهكذا يصوغ دي هولباخ علم الأخلاق عنه قانوناً للطبيعة: "عش لنفسك ولرفيقك فإني (أي الطبيعة) أقر ملذاتك ما دامت لا تؤذيك ولا تؤذي الآخرين الذين جعلتهم ضروريين من أجل سعادتك.. وكن عادلاً لأن العدل يعزز الجنس البشري ويدعمه.. وكن طيباً لأن طيبتك ستجذب كل قلب إليك، وكن متسامحاً حيث أنك تعيش بين كائنات ضعيفة مثلك. وكن متواضعاً لأن كبرياءك تجرح حب الذات عند كل كم حولك. وأعف عن الإساءة والأذى وأحسن إلى من أساء إليك..حتى تكسب صداقته. وكن معتدلاً مقتصداً في شهواتك عفيفاً فإن الانغماس في الشهوات والإسراف والإفراط سوف يدمرك ويقضي عليك ويجعلك مدعاة للاحتقار(130).

إن الحكومة إذا أولت عناية أكبر وأكثر جدية لصحة الشعب وحمايته وتعليمه فقد تخف معدلات الجريمة إلى حد كبير(131). وإذا كان الإنسان يخسر كثيراً في عدم الالتزام بالسلوك الاجتماعي السليم فإنه

لن يكون على استعداد للمغامرة بمثل هذه الخسارة في مثل هذا السبيل. وإذا تدرب التلاميذ على التأمل والتعقل بدلاً من غرس الخوف فيهم وإرهابهم بالمعتقدات غير العقلانية التي سرعان ما تفقد قوتها، فإن أخلاق الرجال لابد أن تتحسن بتزايد قدرتهم على تطبيق خبرتهم على أفعالهم وتصرفاتهم حيث يتنبأون على ضوء الماضي بما سيكون في المستقبل لأعمالهم الراهنة من نتائج .

وعلى المدى الطويل يكون العقل والذكاء أسمى فضيلة، ومثل هذه الفضيلة هي السبيل الأمثل للسعادة .

وفي "منهج الطبيعة" و "المنهج الاجتماعي" (3 مجلدات، 1772)، و "السياسة الطبيعية" (1772، مجلدان) و "روح الشعب" (1776) عالج المليونير الذي لا يكل ولا يمل مشاكل المجتمع والحكومة. وفي هذه الكتب تنتقل الهجمات من الكنيسة إلى الدولة. ويتفق دي هولباخ مع لوك وماركس في أن العمل هو مصدر الثروة ولكنه مثل لوك يبرر الملكية الخاصة على أنها حق للإنسان نتاجاً لعمله وحده. إنه نبيل وقد يتخلص من الأرستقراطية الوراثية .

وقد دعى نفر من الناس حقاً في الثروة ومراتب الشرف فحسب، ولو أن حق المولد واللقب لابد بالضرورة أن يوهن عزيمة الطبقات الأخرى من المواطنين أو يثبط هممهم. إن الذين لا يملكون إلا عراقة الحسب والنسب أو كرم المحتد ليس لهم الحق في الثراء والشرف...ولا

يمكن أن نعتبر النبالة إلا مجرد سوء استعمال أو تعسف مصطنع لا يصلح إلا ليداري خمول...وعجز طبقة بعينها على حساب الأضرار بالمجموع...(132) وهل أعمال النبلاء القدامى والوثائق القديمة المحفوظة في قصور العصور الوسطى تعطي لورثتها الحق في تولي أرفع المناصب في الكنيسة والدولة وفي دور القضاء أو في الجيش دون اعتبار لما ينبغي أن يتحلى به هؤلاء الورثة من قدرات ومواهب لازمة لحسن القيام بهذه المهام(133)؟

أما بالنسبة لرجال الدين فلنتركهم يدبرون أمورهم بأنفسهم، ويجدر أن تنفصل الكنيسة والدولة كل منهما عن الأخرى تمام الانفصال. ويجب أن تعامل الجماعات الدينية على أنها هيئات متطوعة تتمتع بالتسامح ولكن لا تحظى بأي دعم أو تأييد من الدولة. وينبغي على كل حكومة ملتزمة جانب الحكمة والعقل أن تسد الطريق أمام ديانة أو مذهب للجوء إلى التعصب أو الاضطهاد(134).

ودي هولباخ رجل دخل من الأرض وغير الأرض، وهو ينتقد أصحاب الدخول الخاملين من أفراد الطبقة الوسطى. وبوصفه باروناً فإنه يحتقر رجال الأعمال. "ليس ثمة مخلوق حي أشد خطراً من رجال الأعمال الذي يفتش عن فريسته(135). أن جشع التجارة يحل الآن محل طموح الأسرة سبباً للحروب: "إن الدول مستعدة لإفناء بعضها من أجل أكوام من الرجال. إن أمماً بأسرها أصبحت نسخاً طبق الأصل لرجال الأعمال

الجشعين الذين يزينون لهم الأمل في الثروة التي يجنون هم أنفسهم ثمارها، ومن هنا يتناقض عدد سكان البلاد وتفرض عليهم أبهظ الضرائب ويعانون الفقر والعوز لإشباع فهم فئة قليلة. ويسدد طعنة عابرة إلى بريطانيا التي التهمت الهند وكندا. "هناك شعب يبدو أنه في نشوة جشعة أعد مشروعاً متطرفاً لاغتصاب تجارة العالم وتملك البحار- وهو مشروع جائر جنوني يؤدي تنفيذه إلى نوع من الخرافات يصيب الأمة التي تسير وراء هذا الخبل... وسيأتي اليوم الذي يقذف الهنود هؤلاء الأوربيين من شواطئهم حين يتعلمون منهم فن الحرب(136).

ويميل دي هولباخ إلى الأخذ بسياسة الفيزوقراطيين عدم التدخل (حرية التجارة والصناعة). "لا يجوز للحكومة أن تعمل للتأخر شيئاً إلا أن تتركه وشأنه، وليس ثمة تعليمات أو تنظيمات يمكن أن توجهه في مشروعات أفضل من مصلحته هو...وليس على الدولة إلا أن تحمي التجارة. إن الأمم التجارة التي تهيئ لرعاياها أكبر قدر من حرية التجارة لابد أن تثق في أنها ستفوق غيرها من الأمم سريعاً(137).

ولكنه عندئذ كذلك ينصح الحكومات بالحيلولة دون تركيز خطير للثروة. ويقتبس عن طيب خاطر عبارة سانت جيروم الرشيقة اللاذعة "الرجل الغني إما وغد أو وريث أحد الأوغاد(138)". في كل الأمم تقريباً لا يملك ثلاثة أرباع الرعايا شيئاً...وإذا استنزف نفر قليل من الناس الممتلكات والثروة في الدولة، لأصبحوا سادة هذه الدولة

المتحكمين فيها.ويبدو أن الحكومات أهملت هذه الحقيقة إهمالاً تاماً(139)...وإذا توقف إرادة الشعب أو القانون عن حفظ التوازن حتى بين مختلف أعضاء المجتمع، فإن خمول بعض الناس مع الاستعانة بالقوة والخدع والإغراء ينجح (أي الخمرل) في الاستيلاء على ثمار جهود الآخرين وعملهم(140).

وفي رأي دي هولباخ أن كل الملوك يتحالفون مع الأقلية البارعة الذكية لاستغلال أغلبية الشعب- ويبدو أنه كان يفكر في لويس الخامس عشر. "إنا لا نرى على وجه هذه البسيطة إلا ملوكاً جائرين ظالمين، أوهنهم البذخ والترف وأفسدهم الرياء والملق، كما لوث الفجور والفسق أخلاقهم، ودفعهم الدنس والرجس إلى الشر والخبث، لا يتحلون بأية مواهب أو قدرات أو بمكارم الأخلاق، عاجزين عن بذل أي جهد لخير الدولة التي يحكمونها. ومن ثم فإنهم لا يهتمون إلا قليلاً بمصلحة شعوبهم، مستهترون بواجباتهم التي غالباً ما يجهلونها في الواقع. إنهم إنما تتملكهم الرغبة في تحقيق أطماعهم التي لا حد لها، ولذلك يشغلون أنفسهم بحروب عقيمة فيها فناء السكان، ولا يشغلون أذهانهم أبداً بهؤلاء الرعايا، وهم أهم من أجل سعادة أمتهم(141).

وواضح أن تفكير دي هولباخ اتجه إلى الحكومة الفرنسية، فأندفع ينتقد بشدة تكليف رجال المال بمهمة جمع الضرائب، أي تعيينهم ملتزمين عامين. ويهجو هؤلاء الملتزمين: "إن الحاكم المستبد الطاغية

يلجأ إلى طائفة من المواطنين الذين يهيئون له وسائل تحقيق جشعه في مقابل منحهم الحق في انتزاز أموال الآخرين دون عقاب...أنه بسبب غفلته وعماه لا يدرك أن الضرائب المفروضة على رعاياه تتضاعف وإن المبالغ التي تذهب إلى جيوب هؤلاء المبتزين وتزيد ثرائهم تضيع عليه هو نفسه، وأن جمهور العامة الذليل الخاضع قد يرتشي في غمار الحيرة ليشن حرباً على الأمة...إن هؤلاء اللصوص (الملتزمون العامون) إذ تزداد ثرواتهم يثيرون حقد النبلاء وحسد مواطنيهم...وتصبح الثروة هي الدافع الوحيد...والظمأ إلى الذهب يتملك كل القلوب(142).

"إن الأرستقراطي الرخي البال يتحدث أحياناً كما يتحدث أشد الشبان القلقين المغمورين غضباً"، هل ينبغي على الأمم أن تعمل دون كلل ولا ملل لإرضاء غرور حفنة من مصاصي الدماء، وتوفير أسباب البذخ والترف لهم وإشباع نهمهم(143)"؟. أنه في هذه الحالة النفسية يردد صدى كلمات صديقه السابق روسو في كتابه (العقد الاجتماعي) :

"أن الإنسان شرير لا لأنه ولد كذلك بل لأنهم صيروه شريراً. أن العظماء وذوي السيطرة والقوة يستحقون الفقراء المعوزين والبؤساء دون عقاب. إن هؤلاء يغامرون بحياتهم في سبيل الثأر مما لحق بهم من أذى وشر. إنهم يهاجمون جهراً أو سراً البلد الذي هو بالنسبة لهم زوجة أب تعطي لبعض أبنائها كل شيء وتحريم الآخرين من أي شيء...والإنسان في كل مكان تقريباً عبد رقيق. ويتبع هذا بالضرورة أن يكون حقيراً أنانياً

مرائياً منافقاً بلا شرف، وباختصار يتصف بكل رذائل الدولة التي هو فرد فيها. أن هذا الإنسان في كل مكان مخدوع مضلل يشجع على الجهل، محروم من استخدام عقله، فلابد أن يكون بطبيعة الحال في كل مكان غبياً غير متعقل شريراً، وهو في كل مكان يرى امتداح الرذيلة والجريمة وتكريمها. ويستخلص من هذا أن الرذيلة حسنة، وأن الفضيلة تضحية لا غناء...وإذا كانت الحكومات مستنيرة مشغولة جدياً بتربية الشعوب وتعليمها ومصلحتها وإذا كانت القوانين عادلة، فلتن يكون من الضروري التماس أحلام وأوهام مالية في حياة أخرى يثبت دائماً أنها ناقصة غير وافية أمام انفعالات الإنسان الخانقة وحاجاته الحقيقية(144).

وكيف يتسنى إيقاف هذا الاستغلال؟ إن أول خطوة في هذا السبيل هي إلغاء الحكم الاستبدادي المطلق. "إن الحكم المطلق لابد أن يفسد بالضرورة قلب من يتولاه وعقله(145)...ويجب دائماً أن تخضع سلطة الملوك لممثلي الشعب، كما يجدر أن يعتمد هؤلاء الممثلون باستمرار على إرادة الملوك لممثلي الشعب، كما يجدر أن يعتمد هؤلاء الممثلون باستمرار على إرادة ناخبيهم(146)" وهنا مناداة بدعوة مجلس الطبقات المشئوم 1789. "ومن حيث أن أية حكومة تستمد سلطتها من رضا المحكومين" فإن أي مجتمع يمكنه في أي وقت أن يسحب هذه السلطات إذا لم تعد الحومة تمثل الإرادة العامة(147)". وهنا يتمثل صوت روسو والثورة.

ولكن الثورة، بثمن غال أحياناً، تهدم الماضي وتقضي عليه لكي تقيمه من جديد تحت شعار آخر وبصيغة أخرى: "لا يمكن شفاء جراح الأمة عن طريق الاضطرابات العنيفة والصراعات وقتل الملوك والجرائم العقيمة. إن هذه العلاجات العنيفة هي دائماً أشد قسوة من المساوئ المقصود القضاء عليها أو التخلص منها..أن صوت العقل ليس مثيراً للفتنة وليس متعطشاً للدماء. ويمكن أن تكون الإصلاحات التي يهدف إليها متأنية ولكنها لذلك تتوخى خير تخطيط (148).

إن الناس بعيدون عن الكمال وليس في مقدورهم أن يصنعوا دولاً بالغة حد الكمال. واليوتوبيا (المدينة الفاضلة) ضرب من الأوهام "تتعارض مع طبيعة الكائن" بآلته الواهنة المعرضة للخلل وخياله المتوقد الذي لا يصغي دائماً لهدى العقل...أن الوصول بالسياسة إلى مرتبة الكمال لن يكون إلا الثمرة البطيئة لخبرة قرون(149). وليس التقدم خطاً مستقيماً بل هو خط طويل ونحن نحتاج إلى أجيال كثيرة من التعليم والخبرة لتبيان أسباب العلل أو الأمراض الاجتماعية ووسائل البرء منها. والديمقراطية مثل أعلى وهي ممكنة في الدول الصغيرة وحدها، مع ازدياد وعي الشعب وعقله وذكائه. وقد لا يكون من الحكمة إقامة ديمقراطية في فرنسا في عهد لويس السادس عشر. وقد يستخدم هذه الملك الجديد الطيب ذو المقاصد الحسنة أناساً ذوي قدرات ومواهب عظيمة لإصلاح الدولة. وهكذا يرتضي دي هولباخ، آخر

الأمر ملكية دستورية ويهدي كتابه الأخير روح الشعب "إلى لويس" الملك العادل الإنساني العادل الإنساني المحب للخير أبي الشعب وحامي الفقراء(150) وتعليق الفيلسوف العجوز بهذا الأمل المستميت .

دي هولباخ ونقاده

إن "منهج الطبيعة" هو أشمل وأكمل وأصرح عرض للمادية والإلحاد في تاريخ الفلسفة بأسره. أن تردد فولتير وتناقضه ودقته التي لا نهاية لها، وحماسة ديدور الغامضة وكتاباته المتعارضة، ورفض روسو المشوش المربك لما يكتبه جان جاك روسو نفسه، كل أولئك حل محله هنا تماسك دقيق واتساق شديد بين الأفكار، وتعبير قوي في أسلوب عميق أحياناً، مشرق أحياناً، فصيح غالباً، ولكنه دائماً أسلوب مباشر واضح. ومع ذلك فقد أدرك أن سبعمائة صحيفة من هذا النوع قد لا يستوعبها عامة الفقراء. وتلهف دي هولباخ على أن يقبل على قراءة الكتاب أكبر عدد من الناس، ومن ثم فإنه شرح آراءه. ووجهات نظره مرة أخرى في شكل أبسط في حسن الإدراك، أو "أفكار في مواجهة الأفكار الخارقة للطبيعة" (1772). وقلما تميز كاتب بمثل هذه المثابرة والجد في نشر مثل هذه الآراء غير المألوفة التي يريد أن يقنع الناس بها .

وأنه لمما يدل على سعة انتشار آراء دي هولباخ رد فعل "منهج الطبيعة" على فردريك الأكبر، إن هذا الملك الذي كان يخطب ود الفلاسفة، والذي مجدوه وامتدحوه على أنه راعيهم ومثلهم الأعلى، أنقلب عليهم حين رأى أحد قادتهم يهاجم الملكية المطلقة والمسيحية

بقدر سواء. لقد كان من مصلحة أضعاف الوحدة الداخلية بين الدول الكاثوليكية نتيجة للحملة ضد الكنيسة، ولكن أثار استياءه وربما أثار مخاوفه أن يبلغ التمرد حداً يتجاسر معه الآن على تحقير الملوك والنيل من الإله. أن نفس القلم الذي دبج يوماً ضد المكيافيللية، يكتب الأن تفنيد منهج الطبيعة، أن هذا الرجل دي هولباخ قد ركب متن الشطط: يقول فردريك "إذا تحدث إنسان إلى عامة الناس علانية فيجدر به أن يأخذ في اعتباره رقة الآذان الخرافية، ويجد به ألا يصعق أحداً، وينبغي عليه أن يتريث حتى تبلغ الاستنارة حداً يسمح له بالجهر بأفكاره(151).

وواضح أنه بناء على إيحاء فردريك، ولكن من الجائز أكثر من ذلك أنه نتيجة الخوف من أن تؤدي شدة تطرف دي هولباخ إلى انفضاض الناس من حول الفلاسفة، اللهم إلا الملحدين والثوريين، نجد فولتير وكأنما هو قائد جيش يؤنب ضابطاً (ملازماً أول) وقحاً- خصص في مقاله "عن الله" في "قاموسه الفلسفي" عدة صفحات ينتقد فيها رائعة دي هولباخ، فهو يقول في بداية كلامه : "أن المؤلف أفاد من أن الجميع يقبلون على آرائه: العلماء والجهلة والنساء على حد سواء. إن لأسلوبه مزايا نفتقدها عند سبينوزا. وهو في الغالب واضح وأحياناً فصيح، على الرغم من أنه مثل الباقين قد يؤخذ عليه التكرار والأسلوب الخطابي والتناقض الذاتي. أما من حيث عمق التفكير فالغالب أنه لا يوثق به الفيزياء وفي الأخلاق كليهما. وهنا تكمن مصلحة الجنس البشري ومن ثم يجدر أن نتبين هل نظريته صحيحة ومفيدة ."

ولا يوافق فولتير على أن النظام الذي ننسبه إلى الكون، والخلل الذ نظن أننا قد نجده فيه، هما أفكار أو أهواء ذاتية. وحاول أن يبرهن على أن النظام بارز إلى أبعد الحدود وأن الخلل أحياناً واضح إلى حد مؤلم: "ماذا! أليس الطفل الذي يولد أعمى أو بلا رجلين أو غير سوي بشع إلى حد بعيد يتعارض مع طبيعة الجنس البشري؟ أليس الإطراء المعتاد في الطبيعة هو الذي يصنع النظام والشذوذ هو الذي يشكل الخلل؟ أليست فوضى صارخة وخللاً رهيباً أن تعمد الطبيعة إلى تجويع طفل وتخلق له مريئاً محدوداً؟ إن الإخراج بكل أنواعه ضروري، ولكن قنوات الإفراز كثيراً ما تكون بلا فتحات، مما يتطلب العلاج، ويبقى منشأ الخلل عرضة للكشف عنه ولكن الخلل حقيقة واقعة ."

ومن حيث كون المادة لبها قوة توليد الحياة والذهن فإن فولتير على الرغم من أنه كان يوماً ميالاً إلى الأخذ بوجهة النظر هذه، آثر "لا أدرية" متواضعة على افتراضات دي هولباخ الواقعة : "إن الخبرة (وهو هنا ينقل من كتاب منهج الطبيعة) تثبت أن المادة التي نعتبرها جامدة ميتة، تدعي الفعل والحياة والعقل إذا اتحدت وتجمعت بطريقة معينة" وتلك هي المشكلة بعينها، كيف تنشأ جرثومة حية؟ أن المؤلف والقارئ كليهما يجهلان هذا على حد سواء، ومن ثم ألا يكون منهج الطبيعة وكل المناهج الفلسفية في العالم بأسره مجرد أحلام؟ يقول دي هولباخ: "من الضروري أن نعرف المبدأ الحيوي الأساسي، وأحسب أن التعريف متعذر". أليس هذا التعريف ميسوراً جداً....أليس تنظيم الحياة بالشعور؟ ولكن من

المستحيل إثبات أن هاتين الخاصيتين تنشئان فقط من المادة وهي في حركة. وإذا كان من المستحيل إثبات هذا ففيم توكيده؟...أن كثيراً من القراء يشعرون بالسخط والاستياء لاتخاذها هذا الأسلوب الحاسم في الوقت الذي لم يتم فيه تفسير أي شيء...فإذا تجاسر على توكيد أنه لا يوجد إله أو أن المادة تعمل بنفسها بمقتضى ضرورة أبدية، فيجدر أن تشرح هذا وتقيم عليه الدليل، مثل قضية من قضايا إقليدس وإلا أقمت منهجك على "ربما" أي مجرد الاحتمال. وأي أساس هذا لمعتقد على أعظم جانب من الأهمية للجنس البشري .

وكان دي هولباخ قد أيد التوالد التلقائي بإشارته إلى تجارب اليسوعي الإنجليزي نيدهام (1748) الذي أعتقد بأنه كان قد أنتج كائنات جديدة من مادة ليس فيها حياة. وكان فولتير يقظاً لآخر تطورات العلم، فأشار إلى تجارب سبللانزاني (1765) الذي أوضح خطأ إجراءات نيدهام وما انتهى إليه من نتائج. ولم يكن دي هولباخ قد رأى في الطبيعة أي تصحيح أو تخطيط، ولكن فولتير يرى الكثير، ويحاول أن يبرهن على أن نمو العقل وتطوره في الإنسان يدل على عقل في الكون أو فيها وراءه، ويعود آخر الأمر إلى قضيته المشهورة "إذا لم يوجد إله فمن الضروري أن نصطنعه، وأنه بدون إيمان بكائن أسمى في عقله وعدله، فإن الحياة بكل ما فيها من أسرار وبؤس وشقاء تكون غير محتملة، وينضم إلى دي هولباخ في ازدراء الخرافة، ولكنه يدافع عن الدين باعتباره مجرد عبادة بسيطة لإله. ويختتم في رفق فيقول: "إنني ميال إلى

القول بأنك وقعت في خطأ جسيم ولكني بنفس القدر مقتنع بأنك صادق أمين في انك مخدوع خداعاً ذاتياً. يمكن أن تجد أناساً فضلاء دون وجود إله. ولو أنك من سوء الحظ قلت "سرعان ما تجعله الرذيلة الإنسان سعيداً حتى يحب الرذيلة". وتلك قضية مزعجة كان يجدر بأصدقائك أن يقنعوك بمحوها. أنك في كل مكان أخر توحي بالاستقامة والأمانة. إن هذا الصراع الفلسفي سيكون فقط بينك وبين نفر قليل من الفلاسفة منتشرين في أوربا. ومن يسمع عنه سائر العالم شيئاً. إن الناس لا يقرئوننا...أنت مخطئ. ولكننا نقدر ونجل عبقريتك وفضائلك(152).

ولسنا ندري إذا كان فولتير راضياً كل الرضا عن هذا التنفيذ من كل قلبه. وأنا لنلاحظ ملاحظته البسيطة العابرة عندما سمع أن فردريك كان قد كتب كذلك ضد "منهج الطبيعة" "إن الله كان في صفه اثنان على الأقل من أبعد الناس عن التمسك بالخرافات في أوربا- مما لأيد أن يكون قد أثلج صدره كثيراً(153) وطلب إلى الدوق دي ريشيليو أن يحيط لويس الخامس عشر علماً بأن المغترب العنيد في فرني كان قد كتب رداً على الكتاب الجرئ المتهور الذي كان حديث الناس في باريس.

ونشر أصدقاء دي هولباخ نقد فولتير وسيلة للإعلان عن أفكار البارون وأتخذ شباب المتمردين المادية سمة للبسالة والشجاعة في الحرب ضد الكاثوليكية ودخلت فلسفة دي هولباخ إلى روح الثورة الفرنسية

قبل روبسبيير وبعده ـ وكان يؤثر روسو. وإنا لنسمع أصداء كتاب "منهج الطبيعة" في كامي ديمولان وماراه ودانتون(154) قال فاجيه "إن دي هولباخ أكثر من فولتير وأكثر من ديدرو، هو أبو الفلسفة والهجوم العنيف على الدين في أواخر القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر(155) وفي عهد حكومة الإدارة أرسل أحد الوزراء نسخاً من أحد كتب دي هولباخ إلى رؤساء المصالح والهيئات في محافظته للحيلولة دون بعث الكاثوليكية من جديد(156). وأنا لنحس تأثير دي هولباخ في إنجلترا في مادية بريستلي (1777) ونبع كتاب جودوين "بحث في العدالة السياسية" من دي هولباخ وهلفشيوس وروسو بهذا الترتيب في التأثر(157). وبدأ الإلحاد المتحمس عند شللي صهر جودوين، بقراءة "منهج الطبيعة" الذي شرع في ترجمته كوسيلة لإشراك أساتذة أكسفورد في الحملة ضد الدين(158). أما في ألمانيا فإن مادية دي هولباخ وتشكك هيوم هما اللذان أيقظا كانت من "سباته العقائدي" وربما ورث ماركس بطرق غير مباشر تعاليمه المادية عن دي هولباخ.

وقبل أن يكون أن يكتب البارون بزمن طويل كان بركلي قد آذى المادية أكبر إيذاء. فالذهن هو الحقيقة الواقعة الوحيدة المعروفة مباشرة. والمادة (منذ عرفها دي هولباخ بأنها كل ما يؤثر في حاوسنا) معروفة بطريق مباشر، عن طريق الذهن. ويبدو أنه غير معقول أن نهبط

بالمعروف مباشرة إلى ما هو معروف بطريق غير مباشر. وليست المادة واضحة لدينا كما تعودنا أن تكون. إن الذرة تحيرنا كما يحيرنا الذهن سواء بسواء. فكلاهما يحلل إلى أشكال من الطاقة لا يتيسر لنا فهمها، وأنه لمن العسير الأن، كما كان عسيراً في أيام لوك وفولتير، أن نتصور كيف يمكن أن يصبح المادة فكرة أقل وعياً بكثير. أن التفسير الميكانيكي للحياة أثبت أنه مجد في الفسيولوجيا، ولكن يبقى الاحتمال قائماً. وهو أن الأعضاء (المادة) يمكن أن تكون نتاجاً وأدوات للرغبة (الذهن) مثل عضلات اللاعب الرياضي. إن الميكانيكية (الآلية) والحتمية بل حتى القانون الطبيعي "قد تكون تيسيرات وإيضاحات عاجلة لا تقبل الجدل من الناحية المنطقية، لأنها أدوات اصطنعها الذهن لتناول الظاهرات والأحداث والأشياء تناولاً نلائماً، وأصبحت هذه الأدوات عناصر لا مفر منها في الفكر العلمي، ولكنها غير مرضية إذا طبقت على الذهن الذي شكلها. إننا لا نعرف أن العالم منطقي.

المصادر

ديورانت، ول ; ديورانت، أريل . قصة الحضارة .

ترجمة بقيادة زكي نجيب محمود.

1. ^ Sources differ regarding d'Holbach's dates of birth and death. His exact birthday unknown, although records show that he was baptised on 8th December 1723. Some authorities incorrectly give June 1789 as the month of his death.

أعماله:

- *Le Christianisme dévoilé, ou Examen des principes et des effets de la religion chrétienne* (*Christianity unveiled: being an examination of the principles and effects of the Christian religion*) published in Nancy, 1761
- .*La Contagion sacrée, ou Histoire naturelle de la superstition*, 1768
- *Lettres à Eugénie, ou Préservatif contre les préjugés*, 1768
- *Théologie Portative, ou Dictionnaire abrégé de la religion chrétienne*, 1768
- *Essai sur les préjugés, ou De l'influence des opinions sur les mœurs & le bonheur des hommes*, 1770
- *Système de la nature ou des loix du monde physique & du monde moral* (*The System of Nature, or Laws of the Moral and Physical World*), published 1770 in 2 volumes in French under the pseudonym of *Mirabaud*. vol.1 text, vol.2 text at Project Gutenberg, en français.
- *Histoire critique de Jésus-Christ, ou Analyse raisonnée des évangiles*, 1770
- *Tableau des Saints, ou Examen de l'esprit, de la conduite,*

des maximes & du mérite des personages que le christiannisme révère & propose pour modèles, 1770

- *Le Bon Sens*, published 1772 (*Good Sense: or, Natural Ideas Opposed to Supernatural*). This was an abridged version of *The System of Nature*. It was published anonymously in Amsterdam.
- *Politique Naturelle, ou Discours sur les vrais principes du Gouvernement*, 1773
- *Système Social, ou Principes naturels de la morale et de la Politique, avec un examen de l'influence du gouvernement sur les mœurs* 1773
- *Ethocratie, ou Le gouvernement fondé sur la morale* (*Ethocracy or Government Founded on Ethics*) (Amsterdam, 1776)
- *La Morale Universelle, ou Les devoirs de l'homme fondés sur la Nature*, 1776 en français, PDF file.
- *Eléments de morale universelle, ou Catéchisme de la Nature*, 1790
- *Lettre à une dame d'un certain âge*

أدب ثانوي بالإنجليزية:

- David Holohan (Translator), *Christianity Unveiled by Baron d'Holbach: A Controversy in Documents,* (Hodgson Press, 2008).
- Max Pearson Cushing, *Baron d'Holbach: a study of eighteenth-century radicalism in France* (New York, 1914).
- Alan Charles Kors, *D'Holbach's Coterie: An Enlightenment in Paris* (Princeton University Press, 1976).
- Alan Charles Kors, "The Atheism of D'Holbach and Naigeon," *Atheism from the Reformation to the Enlightenment* (Oxford: Clarendon Press, 1992).
- John Lough, "Helvétius and d'Holbach", *Modern Language Review*, Vol. 33, No. 3. (Jul., 1938).
- T. C. Newland, "D'Holbach, Religion, and the

'Encyclopédie'", *Modern Language Review*, Vol. 69, No. 3, (Jul., 1974), pp. 523–533.

- Virgil W. Topazio, *D'Holbach's Moral Philosophy: Its Background and Development* (Geneva: Institut et Musée Voltaire, 1956).
- Everett C. Ladd, Jr., "Helvétius and d'Holbach," *Journal of the History of Ideas* (1962) 23(2): 221-238.
- Virgil V. Topazio, "Diderot's Supposed Contribution to D'Holbach's Works", in *Publications of the Modern Language Association of America*, LXIX, 1, 1954, pp. 173–188.
- S. G. Tallentyre (pseud. for Evelyn Beatrice Hall), *The Friends of Voltaire* (1907).
- W. H. Wickwar, *Baron d'Holbach: A Prelude to the French Revolution* (1935)
- G. V. Plekhanov, *Essays in the History of Materialism* (trans. 1934)
- John Lough, *Essays on the Encyclopédie of Diderot and D'Alembert* (London : Oxford University Press, 1968)

بالفرنسية:

- René Hubert, *D'Holbach et ses amis* (Paris: André Delpeuch, 1928).
- Paul Naville, *D'Holbach et la philosophie scientifique au XVIIIe siècle. Rev. ed. Paris, 1967*
- J. Vercruysse, *Bibliographie descriptive des écrits du baron d'Holbach* (Paris, 1971).
- A. Sandrier, *Le style philosophique du baron d'Holbach*, Honoré Champion (Paris, 2004).



يُقدَّم هذا النص بوصفه إحدى الطرائف الفلسفية اللامعة للبارون هولباخ، حيث يلتقي العمق الفكري بالسخرية الهادئة في تأملٍ مرير حول طبيعة السلطة والإنسان. في هذا الكُتيّب، الذي يحمل عنوان «فنّ الزحف - دليل موجّه ليُستخدمه رجال البلاط»، يرسم هولباخ صورة رمزية لرجل البلاط، ذلك الكائن المتحوّل الذي يعيش بين الولاء والمصلحة، بين الوجه المقنّع والذات المنزوعة الإرادة. ومن خلال هذا النموذج، يكشف الكاتب عن المفارقة الدائمة في النفس البشرية حين تستبدل الحرية بالرضا، والكرامة بالترقّي في مراتب النفوذ.

نُشر هذا الكُتيّب بعد وفاة هولباخ، ضمن المجلد الخامس من سلسلة «المراسلات الأدبية والفلسفية والنقدية الموجّهة إلى أحد أمراء ألمانيا» التي حرّرها فريدريك ميلكيور غريم وديدرو، وقد ضمّ غريم بين أوراقه هذه «الطرائف الفلسفية» التي تُبيّن البعد الأخلاقي والأنثروبولوجي لفكر هولباخ، إذ تتحوّل السخرية عنده إلى أداة تأمل في جوهر الإنسان، وفي صراعه بين العقل والمصلحة، والضمير والسلطة.



